لعنة ما تحت الأرض

لعنة ما تحت الأرض
الكاتب: عمرو صادق السخاوي
إخراج داخلي: الباشا عبد الباسط
رقم الإيداع: 31132 / 2021
الترقيم الدولي: 0 - 296 - 844 - 977 - 978

دار الزيات للنشر والتوزيع shahnda71@gmail. com
مجلس الإدارة/ د. شاهندة الزيات 01066736765
المدير العام/ أ. محمود محروس 01011122429
المديرالتنفيذي/ أحلام محسن 01015766014

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار الزيات المشهرة قانونًا بسجلّ تجاريّ رقم / 49351

9 789778 442960

لعنة

ما تحت الأرض

رواية

الكاتب

عمرو صادق السخاوي

إهداء

بكل فخر واعتزاز أهدي هذه الرواية إلى كل من آمن بي،
واضعًا ثقته الغالية في قدراتي..
أفتخر بكم جميعًا.

إلى من نشأت على أيديهم وأصبحت كما أنا الآن
روايتي الثانية بين أيديكم..

إلى روح أبي الطاهرة..
رغم مفارقتك لي منذ ما يقارب الأربع سنوات؛ إلا أنني والله لأشم ريحك دائمًا، شاعرًا قربك مني ومباركتك لي في كل خطواتي.

إلى عمي العزيز رحمه الله..
جمعتنا الكثير من الذكريات دائمًا، كنت بمثابة الأب والعوض عندما رحل أبي، حتى رحلت أنت أيضًا.. أفتقدك.

إلى خالتي أميمة رحمها الله..

كم كنت محظوظًا لمعاصرتك ووجودك بحياتي، فوالله لم ولن أنسى كم الدعم المعنوي الذي أعطيتِني إياه طيلة سنوات حياتي.

إلى شهداء شقيقتنا وبلدنا الثاني فلسطين،

الذين سقطوا منذ بداية نكبة 48 حتى وقتنا هذا.

رحم الله أمواتنا جميعًا وأسكنهم فسيح جناته.

إلى الأب الروحي في عالم الفن

د/ شاهندة الزيات..

ستكافئين على صبرك، نفتخر بك.

المقدمة

لمن لا يؤمن بوجود العالم الآخر وقدرته الخاصة على إيذاء الجنس البشري ..

ستخضعون لهذه المعتقدات مُرغمين وستَصير حقائق لها دلالات وبراهين، ومما لا ريب فيه ستغيرون وجهة نظركم تجاه هذه النظرية.. حيث إن أحداث الرواية حقيقية وكانت على أرض الواقع يومًا ما.

إلى الطامعين في الوصول إلى الثراء الفاحش سريعًا عن طريق نهب ثروات أجدادهم المدفونة تحت الأرض؛ لكنها لا تحق لهم بأي صلة.. تريثوا وسيروا في الأرض كما أمركم الله عز وجل، فتلك التي تسعون خلفها حتى وإن أعطتكم وجهها السعيد يومًا ما عن طريق الصدقة ليس إلا؛ فحتمًا ستأخذ مقابلها الكثير، وستفتح عليكم أبوابًا شتى من العذاب لم ولن تدفعوا ثمنه بمفردكم؛ بل ومحيطكم أيضًا.

عمرو صادق السخاوي

الفصل الأول

16 أبريل 1968م

دائمًا ما خَلَّفَت الحروب آثارًا أكبر بكثير من آثار التدمير والخراب، تتصارع الدول بين بعضها البعض وتتناسى الشعوب!

وبينما تحقق الدول الكبرى غاياتها وأحلامها التدميرية والاستعمارية، تُخَلِّفُ أثرًا نفسيًّا في نفوس الشعوب لن يستطيع الزمن محوها أبد الدهر، وستظل نقطة سوداء في قلوب وعقول كل من حضر تلك المجازر.

مرحبًا.. أنا أمين زين العابدين، كبرت وترعرعت في مدينة السويس، ولك أن تتخيل عزيزي القارئ أن يتم تهجيرك من مكان نشأتك رغمًا عنك إثر الحروب التي دارت في المنطقة العربية بفعل العدو الأزلي الذي نعرفه جميعًا.

دُمِّرَ بيتنا وماتت أمي وأختي نتيجة قصف طيران الاحتلال الإسرائيلي لمدينتي. حالنا كحال معظم أهالي المدينة، وتم تهجيرنا إلى مناطق أخرى في مصر، فقررت العودة إلى بيت العائلة القديم بقرية قديمة تسمى «أبو صير» وهي إحدى قرى مركز سمنود بمحافظة الغربية.

وصلت إلى بيت العائلة الذي قضيت فيه أول خمس سنوات من حياتي، والذي سمعت الكثير من القصص عنه من أمي، وقصة مقتل خالي الغريبة وكذلك موت جدي وجدتي.

وقفت أمام بوابة المنزل الخارجية لالتقاط صور للمكان وما حوله؛ لَعَلِّي أتذكر أيًّا من ذكريات طفولتي هنا.

وبينما كنت أخطو خطواتي الثابتة على الأرض وعقلي مشوش كثيرًا نتيجة الأحداث الأخيرة التي مررت بها وهول المواقف التي شهدتها في مدينتي؛ وجدت من يصيح بصوت عالٍ قائلًا:

- يا أستاذ.. يا أستاذ!!

الْتَفَّتْ رأسي تلقائيًّا تجاه الصوت الصادر من الخلف لأجد رجلًا في أواخر الخمسينيات عصفت به الأيام وباتت آثارها واضحة تمام الوضوح على وجهه المُتشقق، وَرَدَدْتُ قائلًا:

أمين: بتكلمني يا حاج؟!

المتحدث: أيوة باكلمك.. انت مين وإيه اللي موقفك عندك كدا؟

أمين: أنا أمين زين العابدين، ودا بيت العيلة، وخالي هو الدكتور حسين وجدي الحج ثروت.

المتحدث: يااااااه دكتور حسين ثروت الله يرحمه!!

أمين: أيوة.

المتحدث: ياااه! خطوة عزيزة يا سعادة البيه، بس لا مؤاخذة في الكلمة، انتَ إيه اللي فكرك بينا بعد الغيبة دي كلها؟!

أمين: دي قصة كبيرة هابقى احكي لك عليها بعدين إن شاء الله، بس يا حج على الأقل عرفني انتَ مين دلوقتي وبعدين نبقى نتعرف براحتنا.

المتحدث: أنا عمك سالم الصياد، كنت خفير زمان في دوار العمدة ودلوقتي طلعت على المعاش، وأعرف الست أماني والدتك كويس قوي. صحيح هي ما جاتش معاك ليه؟

أمين: اتشرفت بمعرفتك، بس المهم دلوقتي يا عم سالم هاطلب منك أول خدمة قبل ما نكمل تعارف حتى ونتعرف بعدين، هههه.

سالم: اؤمرني يا أمين بيه.

أمين: دلوقتي أنا عاوز حد ينضف البيت علشان هاقعد كام يوم هنا في البلد.

سالم: ما تِحملش هم الموضوع دا يا أستاذ أمين، أنا هاخلص لك كل حاجة.. معاك مفاتيح البيت ولا لأ؟

أمين: الحقيقة مش معايا أي مفاتيح! وهنضطر نفسخ كل أقفال البيبان دي ونجيب أقفال جديدة.

سالم: كله على الله يا أستاذ أمين.

وبينما كان هذا هو أول حديث يدور بيني وبين أول فرد من أفراد القرية، والذي ظهر كبُشرى خير لي تجاه هذه البلدة وأهلها؛ حتى استأذن وانصرف ليحضر مطرقة حتى نتمكن من كسر الأقفال المفقودة مفاتيحها، وطلب مني الانتظار على مصطبة بجانب المنزل حتى يعود، ووعدني أنه لن يتأخر كثيرًا.

عاد عم سالم سريعًا كما وعدني وأحضر معه خادمة تُدْعَى وردة.. أيضًا أحضر أقفالًا جديدة ومطرقة، وفورًا بدأ في تكسير الأقفال سريعًا واحدًا تلو الآخر.. يبدو أن حال وجهه أعطاني فكرة خاطئة عن قوته الجسدية «اللهم لا حسد» ومن ثم دخلنا المنزل.

كنت أسير بخطوات حذرة أثناء دخولي من البوابة الخارجية، فوجدت طُرقة صغيرة تؤدي إلى سلالم الباب الداخلي للمنزل، تتوسط أرضًا من المفترض أنها كانت مزروعة على حد ذاكرتي الضعيفة؛ لكن مات النبات نتيجة عدم وجود من يرعاه.

وصلت لنهاية الطرقة ثم صعدت سبع درجات لأجد نفسي أمام الباب الرئيسي، وسرعان ما تعامل عم سالم مع قفل هذا الباب كما هو الحال فيما سبقوه وتوجهنا إلى الداخل.

أمين: اسمع يا عم سالم، الخدمة اللي تقدر تقدمها لي إن البيت دا يرجع زي الأول وأحسن في أسرع وقت ممكن.

سالم: من عينيَّ الاتنين يا أستاذ أمين، هنشتغل زي الساعة أنا والبت وردة.. يلا يا بت شوفي شغلك بسرعة علشان الأستاذ يلحق يرتاح، زمانه راجع من السفر تعبان.

وردة: فُريرة يا عم سالم.. بس البيت كبير ومحتاج مجهود، أنا هابدأ بالأوضة اللي هيقعد فيها الأستاذ أمين الأول علشان أخلصها ويدخل هو يريح جثته بسرعة.

أمين: لا يا وردة الأوضة اللي هاقعد فيها هانضفها بنفسي، عيشي انتِ بخيالك بقى في باقي البيت.

وبينما كنت أتجول في هذا المنزل الكبير، وقع اختياري على غرفة عرفت بعد ذلك أنها كانت غرفة خالي حسين رحمه الله، استأذنت عم سالم ووردة ليستطيعا إكمال مهمتهما ودخلت للغرفة مستعدًا لمعركة الغُبار الشرسة التي ستنشب بعد قليل.

اقتربت من الغرفة وفتحت الباب لأشعر برائحة الماضي العتيق تَفْتِك بهذه الغرفة، ودلالات هجر أهلي لهذا البيت أصبحت تُرَى

بالعين المجردة، وذلك من خلال خيوط العنكبوت والتراب المتكدس بالغرفة.

وضعت الحقيبة التي كنت أحملها في يدي وبدلت ملابسي وارتديت ثيابًا قديمة حتى تتناسب مع فترة تنظيف الغرفة والمعركة الشرسة التي تحدثت عنها قبل قليل.

محتويات الغرفة كانت عبارة عن سرير كبير ودولاب ومكتب وتسريحة. بَدَأْتُ بتنظيف السرير ولملمت المفرش الذي كان متشبعًا بالتراب ووضعته على الأرض جانبًا، ثم أخذت عصا كانت بجوار السرير وطرقت عدة طرقات حتى يتنحى التراب جانبًا، ثم جاء الدور على التسريحة فقمت بتنظيفها، فالدولاب الذي لم يكن به الكثير من ملابس خالي وهذا طبيعي لأن معظم حياته كانت بالقاهرة.

انتقلت بعد ذلك إلى المكتب ففتحت أدراجه دُرجًا تلو الآخر فكان أيضًا فارغًا، حتى وصلت للدرج الأخير وهو الوحيد الذي لم يكن فارغًا.. حيث إنني وجدت جرة صغيرة من الفخار هي الوحيدة التي لم تتأثر بعوامل الزمن، وكأنها جديدة ونظيفة جدًّا؛ لكن تخميني في هذه اللحظة بأن الدُرج كان محكم الإغلاق رغم وصول التراب لما كان جانبها بصورة عادية!

اندهشت مما رأت عيناي لكن لا وقت للاندهاش الآن؛ فأنا أريد أن أنتهي من تنظيف الغرفة حتى أستريح من مشقة السفر قليلًا.

وبينما كنت أضع الجرة الصغيرة بمكانها ثانيةً لاحظت أنها لا تقف كما كانت من قبل، فوضعت يدي لأرى ما يعيقها فوجدت مجموعة من الأوراق كانت قد وُضعت في ظرف كبير ومكتوب عليه من الخارج «**رحلة حسين من الاقتداء إلى الانتهاء**».

كما قُلْتُ سابقًا لن أشغل بالي بما سأرى حاليًّا ولكنني حتمًا سأعود إليه بعد انتهاء عملي.

كنت أعتقد بأنني سأنتهي من تنظيف هذه الغرفة سريعًا لكنها أخذت معي الكثير من الوقت حتى انتهيت منها، أنجزت مهمتي بها ثم ذهبت إلى الخارج لمساعدتهم فيما يفعلونه لنتخلص من هذا الكابوس الترابي سريعًا.

وما إن انتهينا من أعمال التنظيف بالمنزل حتى شكرت عم سالم على وقوفه إلى جانبي في هذا الأمر، واتفقت معه هو ووردة على مواصلة العمل في حديقة المنزل، وها أنا الآن على سريري الجديد لأرتاح قليلًا.

الفصل الثاني

سَلَّمْتُ جسدي لسريري كتسليم الشيء لصاحبه، ورغم مشقة هذا اليوم العصيب إلا أنا عقلي أَبَى أن يستريح مع جسدي ولم أستطع الوصول للغاية التي كنت أتمناها في هذا التوقيت بالذات، وهي النوم.

وبينما كان رأسي مشتتًا في التفكير فيما حدث لعائلتي في السويس أدركت أن عيني لن ترى النوم في هذه الليلة، فخطر على بالي أن أخرج إلى شرفة الغرفة ليدخل إلى صدري القليل من الهواء النقي الموجود في الريف بدلًا من رائحة البارود التي كانت موجودة في السويس.

وبالفعل ذهبت فورًا لشرفة الغرفة لأجد كرسيًّا فأجذبه تجاهي قليلًا وأجلس عليه واضعًا كلتا يدي خلف رأسي ورافعًا قدمي لأستند بهما على سور الشرفة الحديدي.

بينما كنت أستنشق الهواء وأملأ به صدري لتنتعش به كلتا رئتي تذكرت ما وجدت في الدرج الأخير لمكتب خالي. ولأن عقلي أَبَى أن يذيقني لذة النوم في هذه الليلة.. إذن لِمَ لا؟! سأذهب لإحضار ظرف الأوراق لأتمكن من فهم معنى هذا العنوان الغريب: «رحلة حسين من الاقتداء إلى الانتهاء»!

توجهت ثانيةً للغرفة وفتحت الدرج الأخير بسَكِينة وأخرجت الجرة الفخار الصغيرة بهدوء وسلاسة، ثم سحبت ملف «خالي» الورقي، وأعدت الجرة كما كانت سابقًا وأغلقت الدرج وذهبت لنفس موقعي في شرفة الغرفة، وجلست بنفس الطريقة التي كانت سلفًا وفتحت الظرف وبدأت القراءة.

* * *

19 ديسمبر 1945م

حسين يبدأ بالحديث:

– عزيزي القارئ.. إذا وصلتك هذه الأوراق بين يديك فحتمًا سأكون في تعداد الموتى، لا مفر ولا طريقة واحدة للهروب، لطالما وصلت أنا أو أي شخص كان لتلك النقطة التي وصلت إليها.

في التاسع عشر من شهر ديسمبر لعام 1945 م قررت أنا الدكتور حسين ثروت أن أكتب ما حدث لي بالتفصيل منذ بداية عودتي من إجازة قصيرة في مدتها.. كثيرة في أحداثها.. وثقيلة في آثارها.

بدأت القصة عندما أخذت قرارًا بالاستراحة من ضغوطات العمل قليلًا وأن أتمكن من رؤية أبي وأمي وإخوتي.

اتصلت بالتليفون الأرضي الوحيد الموجود في قريتي أبو صير والذي كان موجودًا في دوار العمدة فلم يُجِبْ أحد.

حاولت الاتصال مرة أخرى ولكن بنفس النتيجة الأولى، توجهت مباشرة إلى محطة القطار ومنها ركبت القطار المتجه إلى مدينة طنطا حيث مسجد السيد البدوي.

وصلت لعاصمة محافظة الغربية وتوجهت إلى مسجد السيد البدوي كعادتي لأصلي ركعتي شكر لله، ثم اشتريت بعضًا من الحلوى الشعر والحمص ومن ثم توجهت إلى السيارة التي سَتُقِلَّنِي إلى قريتي أبو صير.

وصلت إلى بوابة منزلي الخارجية ووقفت موليًا ظهري للبوابة وعيناي تنظران إلى ذلك المنظر البديع الموجود أمامي، حيث الأراضي الخضراء وأشجار الفاكهة وروائحها الذكية التي حتمًا ستفوح منها خصوصًا وأننا نقترب من بداية فصل الربيع.

استمتعت قليلًا بذلك المنظر الطبيعي المبهر ونظرت مرة أخرى لبوابة المنزل ومن ثم دفعت الباب للداخل ودخلت.

لم يختلف الأمر كثيرًا لحديقة المنزل الداخلية وما رأته عيني خارج المنزل من الناحية الجمالية؛ لذلك لم أُطِل الوقوف لكنني سأعود لهذا المنظر الخلاب فيما بعد.

تحركت ببطء على الطرقة المؤدية للباب الداخلي، وبينما كنت أصعد درجات السلم كنت أنادي: يابا، يا امَّه.. أنا ما وحشتكوش تيجوا تقابلوني ولا إيه؟!

في نفس اللحظة التي أواصل فيها النداء كنت أدفع باب المنزل الداخلي ببطء، وجدت أمين ورباب أبناء أختي أماني يندفعان نحوي مع وابل من القبلات الحارة المتبادلة بيننا والتي تعبر عن الاشتياق.

لحقتهما أمي زبيدة وأختي أماني وفاطمة وتبادلنا القبلات والأحضان أيضًا، بينما وقفت زوجة أخي على استحياء بعيدًا واكتفت بابتسامة خفيفة تعبر عن سعادتها لوصولي قائلة: حمد الله على سلامتك يا دكتور حسين.

فرددت قائلًا: الله يسلمك يا سعاد.

كان أخي شحاتة قد تزوج من سعاد ابنة الحج سلامة تاجر القماش المعروف في قريتنا بحسن السيرة وأعماله الخيرية الكثيرة. تزوجا منذ

خمس سنوات ولكن أخي توفاه الله بعد زواجهما بشهور معدودة على أصابع اليد الواحدة ولم ينجب منها.

حاولت أمي التحدث معي أكثر من مرة في أن تزوجني سعاد لتنعم هي أيضًا بشبابها؛ لكنها لم تضغط عليَّ ضغطًا كاملًا لأنها كانت على علم بحبي وأشواقي تجاه كريمة ابنة شيخ الخفر.

نعم أعلم أنني في نظر الجميع أستحق إنسانةً أفضل منها؛ لكن القلب وما يهوى وليس لي عليه بسلطان.

نعود إلى موضوعنا لأنني أطلت عليكم الحديث في أمور فرعية لكننا سنتطرق إليها فيما بعد..

بعدما تبادلنا سلامات وأشواق الترحيب تابعت أمي حديثها معي وسألتني:

زبيدة: ليه ما اتصلتش عرفتنا إنك جاي كنا حضرنا لك لُقْمَة حلوة تاكلها؟

حسين: والله يا امَّه اتصلت بدل المرة اتنين على تليفون العمدة ولا حياة لمن تنادي، ما حدش رد عليَّ، أنا ما اعرفش ازاي البلد كلها ما فيهاش غير تليفون واحد لحد دلوقتي!

زبيدة: إيوة إيوة أصل الأنفار «العاملين بالدوار» مشغولين اليومين دول في التقاوي «السماد» الناقص للزرع.. يمكن ما سمعوش.. بس والله رزقك في رجليك وجاي لنا واحنا بنخبز.

حسين: اوعي يكون اللي في دماغي يا زبدتي؟! رز معمر وبطاطس باللحمة!

زبيدة: إيوة يا حبيب قلب زبيدة من جوَّا، ادخل انتَ غير هدومك وخد لك حمام على ما الأكل يكون جاهز.

حسين: لا لا مش وقته، أنا هادخل أقعد مع أبويا شوية.

فردت أختي **فاطمة** قائلة: أبوك في العِشَّة اللي في أرض العنب.

فبادلتها الحديث: بيعمل إيه في في أرض العنب؟ فيه حاجة ولا إيه؟

واصلت أختي **أماني** الحديث قائلة: لا يا حبيبي هو بقاله فترة كدا بياخد نفسه آخر النهار ويروح يقعد هناك بعيد عن دوشة العيال، أختك المفعوصة دي هي الوحيدة اللي شايفة إن الموضوع دا فيه إنَّه.

فقلت: طيب أنا هاروح أدردش معاه شوية وألحق غروب الشمس هناك على ما تجهَّزوا الأكل اللي قُلتيلي عليه يا زبدتي.

ردت **أمي** قائلة: عينيَّ يا حبيب قلب زبدتك.

أدخلت حقيبة الملابس التي كانت في يدي لغرفتي ووضعت كيس الحلوى والحمص على طاولة الطعام ومن ثمَّ انطلقت إلى أرض العنب.

الفصل الثالث

31 أكتوبر 1945 م

حسين يتحدث:

- توجهت إلى مكاني المفضل؛ الأراضي الخضراء، حيث الألوان الجميلة والرائحة الذكية والهدوء ونقاء الهواء، وما إن وصلت إلى الكوخ الذي يوجد به أبي بدأ صوتي يرتفع تلقائيًّا تدريجيًّا ليعبر عن مدى حبي وشوقي له قائلًا: يا با! يا حاج ثروت انتَ فين؟

كان سماع أبي لصوتي كفيلًا لجعله يقفز من مكانه فيسرع نحوي ويجذبني تجاه حضنه الدافئ بعدما كان مُستلقيًا على الأرض وواضعًا يديه الاثنتين خلف رأسه، ينظر لسقف الكوخ الصغير بعينه فقط.. أما عقله! فقد كان مشوشًا نتيجة التفكير في أمور أخرى كعادته.

بعدما انتهى أبي من استقبالي بحضنه الدافئ كعادته، نظر إلى عينيَّ واضعًا يديه الاثنتين على أول كتفي قائلًا:

ثروت: نورت بلدك وأهلك وناسك يا دكتور حسين.. واحشني يا حبيبي.

حسين: انتوا اللي واحشينِّي أكتر يا با، بس سيب كلمة دكتور دي للغريب.. دا أنا من صلبك يا حاج.

ثروت: دا أنا أول من لازم يقولها لك.. أنا في ذيك الساعة لما الاقي ابني وضنايا وحبيبي يوصل للي انتَ وصلت له.. انت حققت لي أكتر من اللي طلبته من ربنا..

انتَ معجزتي الحية وصدقتي الجارية في الدنيا دي، وبعدين ما تاكلنيش بالكلام.. إيه الغيبة الطويلة دي كلها؟!

حسين: ضغط الشغل يا با، مش بإيدي والله.. وبعدين ما تزعلش يا سيد الناس أنا قاعد هنا شوية حلوين أهو على الله انت بس ما تزهقش مني وتقول لي قوم فِزْ سافر تاني.

ثروت: بكرة لما تتجوز وتخلف وابنك يتعب أو يتغرب هتحس بنفسك إن مافيش أغلى من الضنا يا ابني، هتقول تزول فلوس ومراكز الدنيا قصاد لحظة تتعب فيها وتقع وما تلاقيهوش جنبك إيده بتسندك، ربنا يبارك لي فيك يا ابني وما اشوفش فيك حاجة وحشة أبدًا.

مَنْ منكم يستطيع الرد على هذه المشاعر الفياضة التي غمرتني وأجبرت لساني على التزام الصمت والاكتفاء بوضع رأسي على صدره مجددًا؟[1]

انتهت لحظات استقبالي من قِبَل أبي ثم وضع يده على كتفي واصطحبني لخارج الكوخ وأنا بجانبه لنشرب الشاي على أحطاب العنب كما تعودنا دائمًا.

وبينما كُنا نشرب الشاي ونتسامر في العديد من الأمور التي حدثت وأنا خارج القرية.. قررت أن أسأله السؤال الذي دائمًا ما كان يخطر في بالي؛ ولكن لا أجد فرصة مناسبة لسؤاله، أو بمعنى أوضح كنت أخشى مواجهته والحصول على إجابة منه لا ترضيني، نظرت إلى عينيه كي لا يستطيع الهروب من الإجابة وقلت له: مش ناوي تسيب الشغلانة دي بقى يا با؟

---

1 – عزيزي القارئ.. مهما تقدم بك العمر وزادت قدرتك على مواجهة ظروف الحياة وأصبحت قادرًا على إعالة نفسك بنفسك.. يبقى الأب سندك وداعمك الحقيقي مهما بلغ من الكِبر عتيًّا، حتى ولو كان وريقات عظام فوق بعضها البعض.

ما توقعته وجدته؛ وقع أثر هذا السؤال على أبي كالصاعقة التي تهبط من السماء فتفتك بما تجده، وتحركت عيناه قليلًا لليمين واليسار في محاولة بائسة منه للهروب من الإجابة ثم قال: يا ابني الفلاحة دي هي اللي بتصرف على البيت وبتأكَّل البهايم.. عاوزنا نبيع الأراضي اللي حيلتنا ونحط إيدينا على خدنا ونصرف من فلوسهم؟! خد من التل يختل يا دكتور.

كعادته أبي بارعٌ في تشتيت أذهان من حوله بإجاباته، يفتح موضوعًا كنا قد تناقشنا فيه من قبل ولم يصل أحد مِنَّا لنتيجة ليهرب به من موضوع آخر نود التحدث فيه.. لكنني كنت مصممًا على أخذ إجابة واضحة منه هذه المرة فرددت قائلًا: يا با انتَ عارف إني ما اقصدش الفلاحة.. أنا باتكلم عن الآثار!

عادت عين أبي للحركة مرة أخرى يمينًا ويسارًا وبَدَا على وجهه الارتباك الشديد مرة أخرى؛ لكنه كان أكثر بكثير من المرة الأولى وصمت لثوانٍ معدودة ثم قال: الدنيا مش زي ما انت بتشوف دلوقتي يا ابني، انت طلعت لقيت الحياة وردي.. أبوك معاه فلوس وعلِّمك، علام حلو يخلي الناس كلها تتباهى بيك ويقولوا دا من بلدنا وابن كذا وكذا.. زمان لما خدنا القرار دا أنا وأصحابي ما كانش عندنا اللي

نخسره وما كانش حيلتنا المليم، ويكون في علمك.. لو فاكر إني ندمان إني اخترت السكة دي يبقى انت غلطان، دا أنا لو الزمن رجع بيَّ ألف مرة بعد كل اللي مريت بيه في حياتي كنت برضه هاختار أمشي في نفس السكة اللي أنا مشيتها.. اسكت وخلينا عايشين متداريين، واحمد ربك على اللي انت فيه وغيرك مش طايله يا دكتور حسين.

كعادته يفوز أبي بالنقاش ويجعله في صالحه ولا يترك لي فرصة للحديث ويحاصرني وأنا في خانة الْيَك، حتى وأنا على يقين بأن الطرف المخطئ هو أبي!

أنهينا جلستنا سويًا وعكفنا على العودة إلى منزلنا، وفي طريقنا مررنا من أمام بيت حبيبتي كريمة واحتسينا الشاي مع عم عرفة شيخ الخفر بعدما طرق أبي الباب بطلب مني ومن ثم انطلقنا صوب المنزل.

وصلنا إلى البيت والظلام كان قد بدأ في الدخول والصمت قد انتشر تدريجيًّا في أرجاء القرية، دخلنا إلى المنزل فَقُوبِلْنَا بالترحاب مجددًا سويًّا، ووجدت أمي قد أعدت مائدة الطعام التي اتفقنا عليها سلفًا. جلسنا جميعًا على منضدة دائرية ذات أرجل قصيرة مُلْتَفِّين

حولها جالسين في وضع القرفصاء أنا وأبي وأمي وإخوتي وأولاد أختي وزوجة أخي رحمه الله.

وما إن انتهينا من الطعام الدسم اللذيذ وجدنا الشاي في انتظارنا فشربناه وانطلق الجميع، كلٌ مِنَّا إلى غرفته بأمر من أبي قائلًا: يلا يا ولاد كل واحد يدخل على أوضته عشان نسيب حسين يرتاح زمانه راجع هلكان من السفر وبرد الطريق مأثر عليه.

بدوري قمت بالتصديق على كلام أبي وهممت بالذهاب إلى غرفتي وارتديت ملابس النوم والتزمت الفراش وفي عقلي أنني سأذهب إلى نوم عميق لم أنمه من قبل.

* * *

31 أكتوبر 1945 م

حسين يتحدث:

- جلست على سريري مستندًا بظهري على شباكه النحاسي، وقدماي ممتدتان، إحداهما على الأخرى، وبدأت في تخيل ما الذي سيحدث في الصباح الباكر حيث لقاء المحبوبة.. كريمة ابنة شيخ الخفر.

اعتدنا على ملاقاة بعضنا البعض صباح اليوم التالي من عودتي إلى القرية والجلوس مع والدها لاحتساء الشاي، والدي ووالدها قريبان تمام القرب من بعضهما بما يكفي للجلوس سويًّا دون الحاجة إلى مواضيع للحديث فيها.

وبينما كنت منغمسًا في تخيلاتي ورد فعل كريمة فور رؤيتي؛ أُصِبْت بالذعر نتيجة سماعي صوت ارتطام شيء ما بالأرض ثم كُسِرْ.

ظللت مَاكِثًا على سريري كما كنت مُلْتَفِتًا برأسي فقط لرؤية ماذا حدث، لأجد حطام الجرة الفخار الصغيرة التي كان أبي قد أهداها لي عندما كنت صغيرًا إثْرَ سقوطها من أعلى مكتبي؛ لكن كيف وقعت دون اقتراب أحد منها؟!

ألقيت نظرة سريعة بعيني وأنا في مكاني فلم أجد شيئًا غريبًا يتمكن من إسقاط هذه الجرة، فقررت العودة إلى تخيلاتي مرة أخرى، وبينما كنت أعيد رأسي إلى موضعه الطبيعي مرة أخرى لمحت قِطًّا أسود داكنًا، هذا القط اعتدت على رؤيته في البيت منذ فترة ليست بالقصيرة عندما أكون في إجازة.

الآن هناك جرة مكسورة وقط أسود.. إذن لا يوجد شيء غريب آخر يبرهن سقوط الجرة غيره، تعجبت من نظرة القط لي حينها وكأنه

يريد إخباري بأنه أتلف الجرة عن غير قصد. قررت أن أواسيه وهممت بالقيام من مكاني متجهًا صوبه لتلمس كف يدي رأسه برفق وكأنني أبعث إليه رسائل طمأنينة مفادها: «لا تخشَ عقابي فأنا أسامحك».

وما كادت يدي تلمس رأسه حتى لاذ بالفرار تجاه الباب كعادته دون أن يجعلني ألمسه.. حيث إنني أتذكر جيدًا أن هذا القط بالذات دون باقي القِطَط لا يتركني أقترب منه ويَفِّر بعيدًا عني.

دار في مخيلتي سؤالًا حينها وهو: «لِمَ لا يسمح هذا القط لأحد بلمسه دائمًا؟ كل المخلوقات تحتاج لتوصيل معاني الأمان والحب إلى قلوبها إلا هذا!»

لذلك قررت الركض خلفه عملًا بالمثل الشعبي: «يا أنا يا انت النهاردا»

أسرعت خلفه فلم أجده، بحثت عنه في كل ركن بالمنزل فلم أجد له أثرًا كأنه فص ملح وذاب أو انشقت الأرض لتبتلعه، فقررت الاستسلام والتخلي عن الفكرة والعودة لفراشي مرة أخرى.

الفصل الرابع

1 نوفمبر 1945 م

حسين يتحدث:

- صباح اليوم التالي استيقظت باكرًا ونهضت من فراشي سريعًا متجهًا إلى باب غرفتي سيرًا على أطراف أصابع قدميَّ، فتحته بهدوء فتحة صغيرة تسمح بعبور الهواء بصعوبة بالغة لأجد أبي لا يزال في المنزل. أسرعت بإغلاق الباب مرة أخرى بحرص أكبر من نظيره أثناء فتحه ثم عُدْتُ لفراشي من جديد جاذبًا غطائي ليُخْفِي جسدي كاملًا باستثناء رأسي والذي كان اتجاهه في الاتجاه المعاكس لباب الغرفة[1].

اِنْتَهى أبي وأمي من عملهما سويًّا وتوجه أبي إلى الحقل بينما أغلقت أمي أبواب المنزل وحدث ما توقعته.. كعادتها منذ الصِغَرْ تفتح باب الغرفة لتطمئن هل الغطاء يغطي جسدي كاملًا أم لا لأنني اعتدت دائمًا على النوم الغير ثابت.

1- حتى يدخل القارئ في مجرى الأحداث سريعًا.. كان الفلاح قديمًا يستيقظ مبكرًا مع أذان الفجر أو قبيل ذلك بقليل لتجهيز العربة والحمار للذهاب إلى أرضه وكانت تساعده زوجته في ذلك، وما إن يذهب رب البيت إلى عمله تعود الزوجة إلى فراشها من جديد لاستكمال نومها.

نعم يا سادة أَصَبْت في وجهة نظري حينما استلقيت على السرير والالتفاف بالغطاء جيدًا، وما إن أغلقت أمي الباب حتى انتظرت قليلًا ثم ارتديت ملابسي وفتحت باب الغرفة بهدوء تام تمامًا كما فعلت في المرة الأولى حاملًا حذائي في يدي خشية أن يُحدِث ضجيجًا ينكشف به أمري. وما إن خرجت من باب المنزل الخارجي حتى ارتديت حذائي منطلقًا تجاه المكان الذي اعتدت أن أتلاقى فيه مع المحبوبة.

وسط الأراضي الخضراء وتحت ظلال الأشجار نتيجة انعكاس أشعة الشمس على وريقاتها وسنابل القمح التي تتمايل مع نسمات الهواء المرطبة، وجوار نفس الطلمبة[1] التي اعتدنا أن نلتقي جانبها وقفت أترقب مجيئها.

لم أطِل الانتظار كثيرًا حتى انتابني شعور داخلي بأن نصفي الآخر قد اكتمل، وأن السعادة تغمُرني وروحي تطير فرحًا.

1- الطلمبة هي آلة تستخدم لإخراج المياه من باطن الأرض عن طريق ذراع حديدية تدفعها بيدك للأعلى والأسفل.

في هذه اللحظات امتلأ قلبي باليقين بأن المحبوبة قد اقترب وصولها.. ألقيت نظرة تجاه الطريق الذي تأتي منه دومًا فإذا بالكريمة تقترب وتتمايل كرقائق أشجار التوت لتزيد بدورها من ضربات قلبي المسكين، ولا مخلوق كان بمقدوره إخفاء أثر الحب علينا وما يفعله في قلب العاشق المشتاق.

اقترَبَت أكثر فأكثر لتتضح الصورة البهية أمامي، وجدتها مرتدية عباءة بيضاء تزينت ببعض النقوش الصغيرة على شكل ورود صغيرة لونها كاسمها، فشبشب نعله من الجلد ووجهه من البلاستيك المقوى ولونه كلون الورود على العباءة. فيما تظهر على الرأس طرحة من نفس اللون لكنها أفتح قليلًا ملتفَّة حول وجهها، وتسقط على جبهتها خصلة من شعرها تُظْهِر جودته ونعومته ولونه الأشقر، وتكتمل هذه التحفة الفنية بعينين زرقاوين ووجنتين حمراوين يخجل الورد من لونه إذا ما قورن بلون وجنتيها.

اقتربت أكثر فأكثر حتى أوقفتها أرجلها أمامي، مُعلنة عن ابتسامة رقيقة تُظهر كلتا غمازتيها وتزيح بها الحسنة الرقيقة المطبوعة على خدها الأيمن، قائلة: «وحشتني».

وقعت أصداء هذه الكلمة على قلبي كتأثير الماء على الجمر لتُريحه من نيران أشواقه وعذاب البُعْد عن المحبوبة، وبدأ وجهي في التصبب بالعرق كعادته في مثل هذه المواقف. وبينما كنت أتأمل جمال وجهها الذي لا يُقاوَم سحبت منديلي القماشي الموجود في جيب قميصي لأمسح به قطرات عرقي الذي نتج إثر سماعي لهذه الكلمة، ثم ابتلعت ريقي ساحبًا شهيقًا واسعًا والذي بدوره جعل مشاعري تتريث رويدًا رويدًا ثم قلت لها:

– كل ما باشوفك باحس إن الدنيا بتضحك لي، باحس إن ربنا بيكافئني بِحُبِك ليَّ وقدم لي أنقى وأطيب قلب في الدنيا.. انتِ بالنسبة ليَّ كل دعوات أمي ساعة فجرية لما كنت أسمعها بتقول ربنا يحبب فيك خَلْقُه يا حسين يا ابني.. انتِ خَلْقُه. انتِ كل خَلْقُه.. أنا بحبك حب كل المحبين لحبايبهم وأكتر شوية، انتِ خيالي وواقعي وأنا ما اقدرش أستغنى عنك.. عشان كدا أنا قررت إننا نتجوز.

عاد رأسي من جديد ليتصبب عرقًا، فما كان مني غير التفكير في استخدام المنديل مرة أخرى، وبينما كنت أرفعه أمسكت كريمة بيدي وبالمنديل مجتمعين لتتركني مُستَشعِرًا ملمس الحرير ونعومته، ظاهرًا

على وجهها التأثر الشديد إثر وقوع كلماتي الرقيقة على أذنيها ثم بدأت تمسح وجهي بمنديلي.

قررت استكمال حديثي قائلًا: أيوة قررت إننا نتجوز.. كفايانا لُقَا ف وسط الغيطان واحنا متداريين وخايفين حد يشوفنا.. إحنا نتجوز وتيجي تعيشي معايا في القاهرة، أنا قررت إني أقول لأبويا الحاج النهاردا بالليل ونيجي لأبوكِ بكرة بعد صلاة العشا.

وما إن انتهيت من حديثي حدثت أجمل مفاجأة لي في حياتي؛ حيث عانقتني عِناقًا مفاجئًا، قويًّا، طويلًا، ممتلئًا بكل معاني الحب والرومانسية والجمال والدلال. وبينما كانت يداها ملتفتان حول رأسي، ويدي حول خصرها، همست في أذني قائلة:

– أنا حبيتك من غير تفكير، استنيتك كتير وكنت بارفض كل اللي بيتقدموا لي وأنا مش عارفة آخر الحب دا إيه.. لكن كنت عارفة إني باحب راجل، كنت حاسة إن ربنا هيكافئني بيك.. وأهو وصلنا لليوم اللي عينيا تدمع فيه من الفرحة وأنا في حضنك.. بحبك.

انتهت هذه المشاعر انتهاء عظيمًا وكأنك تتحدث عن لوحة فنية احتوت العديد والعديد من الدلالات الجميلة والمشاعر الفياضة،

وودعنا بعضنا البعض وداعًا مؤقتًا وكلانا ينتظر مساء اليوم التالي للقاء الأول بلا خوف ولا حذر، وكل منا ذهب من نفس الطريق حيث أتى.

عُدْتُ إلى منزلي ودخلت غرفتي على أطراف أصابعي تمامًا كما خرجت والتزمت الفراش، ثم دار حوار بين قلبي وعقلي، العقل يهدئ من دقات القلب والقلب يطلب من العقل عدم التفكير في أي شيء لأستطيع النوم قليلًا حتى أستيقظ قادرًا على محادثة أبي.

* * *

ما إن دقت الساعة عقاربها مُعْلِنَةً الوصول للثانية عشرة ظهرًا حتى وجدت أمي تفتح باب غرفتي ومنه إلى باب الشرفة لتسمح بدخول أشعة الشمس للغرفة لتطهيرها من البكتيريا قائلة:

– كفاياك نوم بقى يا دكتور حسين يا ابني إحنا بقينا وش الضهر، يلا عشان تقوم تتغدى معانا.

استندت بظهري على شباك السرير وتظهر على وجهي علامات نومي العميق ثم قلت لها مُتَثَائِبًا: صباح الخير يا امَّه، أنا حاسس إني نمت نوم ما نمتوش من سنة فاتت.

نعم أظهرت أنني خلدت إلى نوم عميق لكن الحقيقة لم تكن كذلك إطلاقًا، حتى بعدما عُدْتُ إلى المنزل بعد لقائي بكريمة لم يتركني عقلي وأصبح يضع آلاف الاحتمالات واردة الحدوث عندما يحين الحين وأتحدث مع أبي؛ لكن المسكينة أمي رَاقَ لها سماع نومي العميق لأن كل أم تحب دائمًا رؤية أبنائها في راحة وقالت لي:

– طب يلا قوم يا حبيبي الغدا جاهز وكلهم برا مستنيينك.

ثم خرجَت من الغرفة.

جلست على أحد أطراف السرير كجلوسي على الأريكة بلا مسند للظهر، وبدأت أقدامي بالحركة عشوائيًّا بشكل دائري باحثة عن نعالي فلم أجد إلا النعل الأيمن، بينما بحثت عن الآخر قليلًا لكنني لم أجده..

ألقيت نظرة سريعة على الغرفة وأنا في مكاني فوجدته عند مدخل الباب فرجَّحْت أن تكون أمي قد ألقته بعيدًا دون أن تشعر ثم ارتديته وخرجت.

وبينما كنت في طريقي إلى الصالة حيث الجميع ينتظرونني مررت على المرحاض وقمت بالمضمضة أولًا ثم غسلت وجهي ويدي سريعًا

ثم سحبت منشفة قد تم تعليقها على مسمار حديدي بجانب الحوض ثم الذهاب للسُفْرة بعد ذلك مباشرة.

ألقيت التحية على الجميع وقبَّلت يد أبي ثم جلست على الكرسي الفارغ الذي كان بجانبه والمجهز خاصةً لي، وهذه هي عاداتنا وتقاليدنا في الأرياف، وقبل أن يُعلِن أبي عن الإذن بتناولنا للطعام اقتربت منه وقاطعته قائلًا: يا حاج ثروت كنت عاوزك في موضوع كدا بعد الغدا إن شاء الله.

لم يُجِب؛ لكنه اكتفى بتحريك رأسه لأعلى وأسفل مُعلِنًا موافقته على كلامي ثم أعطانا الإذن بالبدء في تناول الطعام قائلًا: بسم الله.

بدأ أبي أولًا بتناول الطعام واضعًا يده على الديك الرومي ومُنْتَزِعًا بيده قطعة كبيرة من الصدر واضِعًا إياها أمامه، على النقيض أمي التي بدأت بوضع الأرز في الطبق الموجود أمامي ولحِقَتْها أختي بقطعة أخرى من الديك المسكين الذي سنفتك به الآن. فوجئت أيضًا بزوجة أخي تضع حمامة في طبقي هي الأخرى ومبتسمة ابتسامة جميلة قائلة:

- اتفضل يا أستاذ حسين، كل واتغذى.

بالتأكيد كان هذا مصحوبًا بنظرات يمينًا ويسارًا من هنا وهناك كدلالة على دهشتهم مما يحدث؛ لكنني قررت تَخَطي الأمر، وما إن انتهينا من طعامنا حتى جلسنا سويًّا أنا وأبي ننتظر الشاي كعادتنا.

بدأت معه حديثي قائلًا: هي إيه الدوشة اللي كانت برا دي يا حج ثروت؟

وكعادته أبي يُلْقِي بكلماته القوية في وجهي: طبعًا ما انت نايم في البيت ومش داري باللي بيحصل في البلد.

تعجبت من رده الثقيل في مغزاه، لكنني قررت استخدام أسلوب الاستنكار برفق: وهو إيه اللي حصل في البلد يا حاج وأنا عرفته قبل كدا؟ ما كل مرة انتَ اللي بتيجي تحكي لي يا حج.. يلا احكي لي بقا.

نجحت خطة التهدئة التي وضعتها بيني وبين أبي حيث ظهرت على وجهه علامات الرضا نتيجة ردي وقال: مسكنا حرامي في مخزن الكيماوي النهاردا الصبح والبلد كلها هاجت عليه وعملوا له زفة معتبرة لحد لما وصلوه بيت العمدة.

أعلم أن الأمر لا ولن يهمني في شيء؛ لكنني قررت سؤاله عن الشخص الذي أمسك بالحرامي حتى يعلم أنني أتابع حديثه بتركيز شديد فأجاب: عمك عرفة شيخ الخفر الله يعمر بيته، ألا قُل لي يا سيدي موضوع إيه بقى اللي كنت عاوزني فيه بعد الغدا؟

تعجبت عندما سمعت أن من أمسك بالحرامي هو والد محبوبتي؛ ولكنني كنت في غاية السعادة من داخلي وأخبرت أبي بأن الموضوع الذي أريده فيه له علاقة بعم عرفة.

وبينما كان يضع رد فعله على كلامي متعجبًا: بخصوص عرفة ازاي؟

كانت زوجة أخي تقترب مِنَّا آتية بالشاي لكنني لم أُعِرها اهتمامًا وأكملت حديثي: أنا عاوز أتجوز كريمة بنت شيخ الخفر يا حاج.

ما إن خرجت هذه الجملة من فمي حتى وقعت صينية الشاي من يد سعاد زوجة أخي كدليل على صدمتها مما سمعت، على النقيض لم يُعِرْ أبي اهتمامًا لما حدث مع سعاد وصاح بأعلى صوته قائلًا: يا زبيدة.. يا أماني.. يا فاطنة، الحقونا بالشربات يا ولاد.

سرعان ما حضر الجميع من المطبخ للاستفسار عن سبب طلب الشربات؛ لكنهم حينما وصلوا وجدوا أكواب الشاي المتكسرة تملأ المكان، أيضًا سعاد يبدو على وجهها الحزن الشديد، تعجبت أمي من طلب أبي وسألته عن سبب طلبه للشربات فرد عليها قائلًا: ابنك الدكتور حسين خلاص هيكسر رَهْبَنْتُه وعاوز يكمل نص دينه.

أماني: يا ألف نهار مبروك، ألف مبروك يا اخويا يا حبيبي. لولولولولي.

زبيدة: بتزرغطي ليه يا بت انتِ؟ مش لما نعرف مين سعيدة الحظ اللي هيتجوزها!

أماني: وما له يا امَّه أيًّا كانت مين؛ المهم إن حسين هيتجوز وهنفرح بيه ونشيل عياله.

ثروت: حسين عاوز يتجوز كريمة بنت شيخ الخفر وأنا موافق.

ما إن سمعت أمي اسم كريمة حتى بدأ الحزن في الظهور على وجهها وقالت بصوت خافت: مبروك يا ابني.. ربنا يتمم لك على خير.

ثم ذهبت تجاه سعاد ولملمت حطام الزجاج الذي كان بالقرب منها، وربتت بيدها على كتفها، وأخذتها من يدها وخرجت معها.

تابع أبي حديثه معي قائلًا: الليلة نروح لعند داره ونطلب إيدها.

لكنني اعترضت سريعًا على كلامه قائلًا: لا خليها بكرة يا حاج على ما اجهِّز نفسي.

فقال: ليه يا ابني؟ ما خير البر عاجله..

فأجبت: مش انت لسَّا بتقول إنهم ماسكين حرامي يا حاج؟ أكيد هيبقى مشغول في دوار العمدة طول النهار وهيرجع البيت تعبان، خليها بكرة، نصلي العشا ونتوكل على الله.

وافق أبي على كلامي ولم يعترض مرة أخرى؛ لكن سعادته كانت ظاهرة جدًّا على وجهه.

اقتربت مني أختي الصغيرة فاطمة وقالت لي: شُفت اللي حصل بين أمك الحاجة زبيدة وسعاد؟

كانت تقول هذه الجملة ضاحكة فلم أُعِرْها اهتمامًا، وفضَّلت الصمت عن الكلام؛ لكنني حتمًا لن أنسى هذا الموقف أبدًا.

الفصل الخامس

2 نوفمبر 1945 م

حسين يتحدث:

– انتهى هذا اليوم الجميل جدًّا في بداياته، حيث التلاقي بين عقلي ومن اختارها قلبي، الرائع في منتصفه بموافقة أبي على ذهابنا سويًّا لخطبة فاتنة الفؤاد، والممتلئ بالكثير من علامات الاستفهام حول ردة فعل أمي عند سماعها هذا الخبر؛ لكن في الأخير كان قد مَرَّ النهار وغطى سواد الليل أرجاء القرية، ولم يتبقَّ سوى النوم جيدًا هذه المرة أكثر من تلك الليلة التي كانت قبلها.

أطفأت سراج غرفتي الذي كان مشتعلًا وأشعلت بدلًا منه «**وناسة**» وهي عبارة عن زجاجة بها شريط قماشي يشتعل بالجاز الأبيض ليضيء إضاءة خافتة تساعد على النوم. ذهبت إلى فراشي تاركًا جسدي يتساقط عليه عضوًا تلو الآخر.

لم يَكُنْ سُبَاتِي هذه الليلة كما جاء في بالي أبدًا، فكنت أتمناه نومًا هادئًا خصوصًا مع اقترابي من تحقيق أحد أهم أحلامي؛ لكنني فوجئت باستيقاظي صارخًا بأعلى صوتي، وعندما فتحت عيني وجدت ذاك

القط الذي كسر الجرة الفخارية سلفًا جالسًا على صدري وعيناه تنظران إليَّ بطريقة مخيفة غير مفهومة. حاولت الإمساك به لكنه تمكن من الفرار سريعًا بنفس الطريقة التي خرج بها المرة الأولى من الباب المفتوح فتحة صغيرة جدًّا.

سرحت في خيالي لوهلة لكنني سرعان ما أفقت على صوت طرق باب غرفتي، فتخبرني بأنها أختي فاطمة ولم تنتظر لأسمح لها بالدخول، لأجد مقبض الباب يتحرك لأسفل حتى تستطيع فتح الباب!

ألم يكن هذا الباب مفتوحًا بالفعل والقط خرج أمام أمِّ عيني؟!

كيف لأختي أن تفتحه مجددًا ما دام مفتوحًا؟!

فاطمة: ما لك يا حسين بتزعق ليه؟

حسين بانفعال: انتِ فتحتِ الباب ليه؟

فاطمة: ما هو أنا يا حبيبي كان لازم أفتحه بعد كل الصريخ اللي سمعته، دا الجيران صحيوا.

حسين: أنا قصدي فتحتِ الباب ليه وهو كان مفتوح أصلًا؟!

فاطمة: كان مفتوح ازاي يا حبيبي وأنا اللي فاتحاه بإيدي؟! انت حالتك صعبة خالص. روق كدا دا احنا الليلة هنقرا فاتحتك.

حسين: انتِ شايفاني مجنون عشان تقولي لي حالتك صعبة؟ أنا لسَّا شايف بعيني القط الإسود اللي كنا بنشوفه في البيت زمان لسَّا خارج دلوقتي والباب كان موارب.

كنت أتفوه بهذه الجملة وأنا في حالة عدم اتزان نفسي وبدأت في «**التهتهة**» والتَعَرُّق تمامًا كما كنت صغيرًا.

كانت فاطمة تعلم حالتي هذه فجلست بجانبي على السرير وأسندت رأسي إلى صدرها، وأظافر أصابع يدها اليُمْنَى تتجول بين بُصَيْلات شعري وتتحسس شعري بهدوء لتساعدني على الاسترخاء.

استمرت أختي الصغيرة على هذا الحال حتى استعدتُ توازني من جديد وأصبحت قادرًا على التحدث بصورة عادية، ثم سألتني عن سبب صراخي هذا فلم أتحرك من مكاني الذي كنت عليه، ثم أبلغتها في صوت خافت بأنه كان كابوسًا.

لم أنتظر حتى تسألني أي كابوس هذا؛ فورًا بدأت في الحديث عنه وأبلغتها بأنه بخصوص كريمة، ثم نظرت إليها وسألتها إن كانت

تتذكر حكاية ذلك الحرامي الذي قُبِضَ عليه بالأمس، فأجابت بأنها تتذكر.. أخبرتها بأنني رأيت في هذا الكابوس أن أهل الحرامي أرادوا الانتقام لابنهم من شيخ الخفر الذي أمسك به وقاموا بإضرام النيران في منزله حتى أصبح كتلة متوهجة نتج عنها موت زوجة شيخ الخفر في الحال، بينما أصيبت كريمة بجروح خطيرة نُقِلَت على إثرها إلى المستوصف، وقف الأطباء أمام حالتها عاجزين وسرعان ما لحقت هي الأخرى بأمها لتسكن إلى جوار ربها.

ما كدت أنتهي من كلامي حتى سمعت صوتًا يرج الأرض رجًّا، قادمًا من بعيد يصيح قائلًا: «يا حسيييييييين».

وما إن اقترب الصوت قليلًا حتى أدركت أنه صوت أبي. وجدته يدخل مسرعًا ويضرب الباب بقوة ومنفعلًا بطريقة لم أرَها من قبل، أسرعت بالرد عليه قائلًا: «أيوة يا با! ما لك عامل في نفسك كدا ليه؟».

سرعان ما بدأ الجبروت المرسوم على وجهه في الاختفاء تدريجيًّا، وبدا عليه التوتر لدرجة أن عينيه اغرورقتا بالدموع، كل هذا قبل أن يتحدث ثم قال بنبرة صوت يظهر عليها التأثر الشديد: «ابن الكلب

اللي شيخ الخفر مسكه امبارح أهله دخلوا البلد عشان ينتقموا منه، فولعوا فداره وماتت مراته وكريمة نقلوها على المستوصف».

ما إن قال أبي هذا الكلام حتى بدأت الأصوات من حولي تتخافت رويدًا رويدًا. نظرت إلى أختي فاطمة في ذهول فوجدتها هي الأخرى تبادلني نفس النظرة بل أكثر قليلًا.

أعدت النظر إلى أبي مرة أخرى مُكَرِّرًا آخر جملة أبلغني بها باستنكار: «كريمة نقلوها المستوصف!».

لِيُؤَكِد لي ما قاله منذ قليل: «أيوة كريمة نقلوها المستوصف».

ما هذا الذي يحدث؟ هذا ما رأيته في حلمي قبل قليل! وإن لم أَقُص على أختي هذا الحلم قبل أن يأتي أبي لما استوعبت ما سمعته أذناي وما اقتنعت بأن هذا كان حلمًا قط.

كنت أشعر حينها بوجود سحابة سوداء ملتصقة برموشي مشوشة على رؤيتي، تفكيري وأيضًا مشاعري، كانت ترافقني في رحلتي من بيتي إلى المستوصف راكضًا حافي القدمين وبملابس نومي، كانت القرية مُنْقَلِبة رأسًا على عقب ويسرع الجميع من كل حدب وصوب

تجاه نفس الوجهة التي أقصدها أنا كما لو كنا في سباق سرعة للحصول على الميدالية الذهبية في الأولمبياد.

وصلت إلى المستوصف، وكانت زاوية رؤية الباب الرئيسي مغلقة تمامًا نتيجة الزحام. لفت نظري أن الجميع ممن تتضح لهم رؤية الباب بوضوح يرفعون أصبع يدهم اليمنى السبابة ويرددون الشهادتين، دفعت من كانوا أمامي على يميني ويساري فلاحظت أن أصابعهم السبابة تتحرك مع حركة سرير «**ترولي**» يخرج من المستشفى.

لم تكن الأمور بالنسبة لي على ما يرام أبدًا، كان يراودني شيء غريب؛ لكن إحساس اللاوعي المسيطر على عقلي نتيجة سماعي كلام أبي كان طاغيًا أكثر من أي شيء آخر. تنقلت بين الحضور واحدًا تلو الآخر لأتمكن من رؤية السرير ومَن عليه، وجدت فلذة كبدي ومنبع وجداني ومصدر روحي الكريمة الطاهرة مُسْتَلْقية على ظهرها لا حول لها ولا قوة، وشعرها الأصفر الناعم لم يتبقَّ منه إلا القليل، منتهية أطرافه باللون الأسود نتيجة احتراقه. أما وجهها فقد كان مُلطخًا بالدماء لدرجة إخفاء ملامحها ويمنعني من توديعها لآخر مرة!

يبتعد السرير عني فَتُسْحَب روحي مني رويدًا رويدًا في اتجاه سير السرير. عقلي ما زال مشوشًا، هل هذا حقيقي أم إنني ما زلت أحلم نفس الحلم اللعين؟!

بربك إن كان هذا حلمًا استيقظ الآن..

كنت أقول هذه الكلمات ضاربًا رأسي بقبضة يدي؛ لكنني كنت أشعر جيدًا بالضرب!

استكمالًا لحركات اللاوعي وجدت نفسي أترك الجميع وأعود للركض مرة أخرى؛ لكن هذه المرة تجاه دوار العمدة، عندما اقتربت من مدخل الدوار كان صوتي يرتفع بكلمات غير مفهومة مثل «يا عمدة»، «هو فيييين؟»، «لو راجل يطلع لي».

استوقفني أحد الخفر وسألني إلى أين أنا ذاهب فلم أُعِرْهُ اهتمامًا وأعدْت الكلام الغير مفهوم من جديد، فظهر لي العمدة مرتديًا جلبابًا بلديًّا وعِمَّة ويستند على عصا خشبية.

العمدة: ما لك يا دكتور حسين؟ خير بتزعق ليه؟

حسين: انت قاعد في دوارك ومش داري باللي بيحصل في البلد؟ هو فين انطق؟

العمدة: هو مين اللي فين يا سي الدكتور؟

حسين: الكلب اللي اتمسك امبارح وأهله ولعوا في بيت عم عرفة وقتلوا مراته وبنته؟

العمدة: وانت فِكْرَك بعد اللي حصل دا هاسيبه عندي في الدوار ثانية واحدة؟

حسين: أُمال وديته فين؟ انطق.

العمدة: سلمته للمركز طبعًا وهمَّ هيتصرفوا معاه بطريقتهم بعيد عني.

يفصل بيني وبين العمدة رجاله لكنني لم أبالِ بوجودهم، فعندما سمعت بأنه سَلَّم الحرامي للمركز انطلقت تجاهه وراوغت رجاله وسحبت عصا أحدهم، وبينما كنت مُمْسِكًا العصا من أحد أطرافها والطرف الآخر يهوي على رأس العمدة، فوجئت بأنني مَنْ ضُرِبْت، شعرت بدوار شديد، يبدو أنني سأذهب في غيبوبة.. لقد ذهبت.

ثم وقعت على الأرض في مكاني وفقدت وعيي كاملًا.

* * *

3 نوفمبر 1945 م

حسين يتحدث:

- في غرفتي وعلى سريري وجسدي مُلْقًى كجُثة هامدة، فتحت عيني رويدًا رويدًا، في البداية لم تكن الرؤية واضحة بالقدر الكافي لتمييز ما أراه؛ لكن ما هي إلا لحظات بسيطة حتى عادت الأمور إلى طبيعتها لأجد حولي الكثير من الوجوه الغريبة التي لا أعرفها، انتفضت من مكاني قائلًا: «انتوا مين؟ وبتعملوا إيه هنا؟».

سرعان ما دخل أبي للغرفة بمجرد سماع صوتي..

ثروت: اهدا يا ابني انتَ لسَّا تعبان.

الطبيب: من فضلك يا دكتور حسين اهدا.. أنا دكتور زيك ومتابع حالتك وجنبك من امبارح، فأرجوك تهدا.

حسين: من امبارح! كريمة، كريماااااااااه.

الطبيب: من فضلك اهدا، والله حالتك لسَّا مش مستقرة وكدا هتعرَّض نفسك للخطر.

ثروت: يا حسين يا ابني كريمة راحت للي أحسن مني ومنك، راحت للي خلقها شهيدة.

حتى اللحظة التي قال فيها الطبيب جملة «**جنبك من امبارح**» لم تكن ذاكرتي قد عادت بالشكل الكامل؛ لكن بمجرد التقاط أذني لهذه الجملة تذكرت كل ما حدث. لم أكن أتخيل للحظة أن يأتي اليوم الذي أودعها فيه توديعًا أبديًّا!

ومتى جاء؟ في يوم ذهابي لخطبتها!

يا الله! نزعت روحي معها عند مرور جثمانها من أمامي، دخلت مرحلة اللاوعي وتذكرت لحظاتنا الجميلة سويًّا منذ طفولتنا عندما كنا نلعب «**استغماية**» في أحد شوارع القرية، حينها كانت تختبئ في مكان ما وكنت أراها ولكنني كنت أحب أن أراها فائزة وأخسر أنا!

وفي الفصل في مدرستنا الابتدائية كان المعلم يذهب لمكان ما ويترك الفصل لفترة قصيرة، طالبًا مني كتابة أسماء الطلاب المشاغبين، كانت دائمًا ما تتحدث مع صديقاتها وتنظر لي نظرة معناها «**قلبك لن يطاوعك لكتابة اسمي فيأتي المعلم بعد ذلك ليعاقبني**» فأوجه لها تحذيرًا أن تسكت وإلا ستتعرض للعقاب؛ فلا تُبالي لما تسمع مني وتستمر في الحديث مع صديقاتها.. أما يدي! لم تستطع كتابة اسمها مرة واحدة أبدًا.

لم أكن أتوقع أن يأتي يوم لأوجه لكِ رسالة أخيرة.. لقد أردتك العمر كله؛ لكنها هي الحياة يا جميلة، قررت أن أقاتل بشرف لتكوني لي ولكن الشرفاء أيضًا يخسرون معاركهم.. أتركِكِ الآن وأمضي كجيش قُتِلَ قائده ولم يعد لديهم شيء ليقاتلوا من أجله.

بينما كنت أتذكر هذه الذكريات الجميلة سمعت صوت ذلك الطبيب الموجود بغرفتي يقطع أحبال أفكاري بصوته المزعج..

الطبيب: دكتور حسين! يا دكتور حسين! حضرتك بقيت كويس دلوقتي؟ حالتك أحسن؟

حسين: أنا أقدر أقوم من السرير إمتى؟

الطبيب: تقدر تتحرك وقت ما تحس إن حضرتك كويس، حضرتك دكتور وسيد العارفين إن الزعل أكتر حاجة بتأثر على صحة البني آدم.

حسين: شكرًا لحضرتك يا دكتور، يلا اتفضل انت والتمرجية بتوعك اطلعوا برا من غير مطرود.

هممت بالقيام من سريري أثناء تفوهي بالجملة الأخيرة التي قُلتها للطبيب وطلبت من الجميع بالغرفة الانصراف لأستطيع تغيير

ملابسي، وبينما كنت أدفع الطبيب والممرضين للخارج بيدي، قال لي الطبيب بصوت عالٍ: «ممنوع تدخين الفترة دي خالص يا دكتور حسين».

ليسرع أبي في الرد عليه قائلًا: «ابني ما بيدخنش عشان تمنعه من التدخين يا دكتور».

في حقيقة الأمر أنا مدخن شَرِه؛ ولكن من عادات قريتنا احترام أهلنا، فلا نجرؤ على إشعال السيجارة أمامهم، بل لا نستطيع إخبارهم بأننا مدخنون، بل الأصعب من ذلك أننا نخشى معرفتهم بأننا ندخن خشية أن يعاقبوننا مهما بلغنا من الكِبر عتيًّا.

أغلقت الباب وقمت بتغيير ملابسي ليتعجب أبي ويوجه لي سؤالًا:

ثروت: رايح فين يا ابني وانت في حالتك دي؟

حسين: رايح العزا يا حاج هاكون رايح فين؟ فيه مكان غيره؟

ثروت: بس يا ابني انت لسَّا تعبان وجسمك محتاج للراحة، وبعدين ما ينفعش أسيبك تروح وانت في الحالة دي!

حسين: راحة إيه اللي انت بتتكلم عنها يا با؟ مش كفاية ما لحقتش أفرحها قبل ما تموت وأكون جنبها! كنت غبي لما قُلت لك خلينا

بكرة، إحنا لازم نستغل الفرص ولما تسمح لنا الفرصة لازم فورًا ناخد الخطوة، على الأقل كنت هاعرف أدفنها بإيدي قدام الناس!

ثروت: يا ابني الحزن في القلب، احزن عليها وانت في بيتك، خروجك دلوقتي معناه إن صحتك في خطر، لما تروح العزا هتعرف تشوفها ولا تودعها؟ ما هي خلاص بقت روحها في إيد اللي خالقها وراحت للحياة الأبدية اللي كلنا هنروح لها.

حسين: عاوزني أقعد في البيت زي الولايا يا با؟ بدل ما تقول لي هناخد حقها من اللي قتلها وحرق قلبي عليها! يا با جوايا نار بتحرق قلبي لو طلعت برا كفيلة تحرق كل الكون دا.

ثروت: حقها هييجي يا حبيبي.. حقها هييجي، طب استنى هالبس وآجي معاك أنا كمان.

أصبح أبي جاهزًا وذهبنا سويًّا للعزاء الذي كان موجودًا أمام منزلها، هذا المنزل كان من المفترض أن يضج بالأغاني والزغاريد بالأمس! انقلبت الأحداث رأسًا على عقب ولا صوت يعلو فوق صوت شيخ القرية يقرأ القرآن على عروس الجنة.

وبات صوته واضحًا للجميع يقول: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾ وأرى الحزن واضحًا على جميع الحضور لفراق ملاذ قلبي.

أسير في الطريق وكأن حذائي مصنوع من الحديد، خطواتي على الأرض ثقيلة، ركبتاي كانتا ترتجفان، قلبي ينبض سريعًا من رهبة المشهد، حيث جميع من في القرية يودعونها ويأتون لتقديم واجب العزاء لأهلها.

وصلت إلى الحج عرفة شيخ الخفر ووالد حبيبتي ومددت يدي لأقدم له واجب العزاء وأنا غير مقتنع بما أفعله؛ فأنا أُعزِّيه لكن مَن سيعزيني؟

في بداية الأمر كنت قد قررت عدم الحديث معه أثناء مصافحته؛ لكنني وجدت نفسي تلقائيًّا أقول له: البقاء لله يا عمي، كريمة بنتك عروسة في الجنة، كريمة بنتك شهيدة.. اوعاك تزعل لفراقها، انت المفروض تكون فرحان..

فرد قائلًا: قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، إنا لله وإنا إليه لراجعون.

عاد لساني للحديث مجددًا تلقائيًّا: اوعى تصدق الكلمتين الخايبين اللي أنا قُلتهم دول، دول كلمتين باقولهم لك باضحك بيهم عليك، كلمتين باقولهم عشان يصبروك وأنا محتاج اللي يصبرني.. فراق كريمة صعب قوي عليَّ.

كنت أبوح بما في نفسي لكن هذا ليس بزمانه ولا مكانه، دفعني أبي للأمام آخذًا بيد عم عرفة مني ليعزيه، ثم أخذني من يدي لنجلس في العزاء بينما ظل عم عرفة ينظر لي متعجبًا مما حدث قبيل قليل!

* * *

17 أبريل 1968 م

أمين يتحدث:

– استيقظت من نومي العميق قرابة الساعة الثانية عشرة ظهرًا، وذلك بعد ليلة طويلة كانت حافلة بالألغاز والكثير من علامات الاستفهام؛ لكن كل هذا لم يزِدني إلا إصرارًا على استكمال قراءة مذكرات خالي رحمه الله، لأنني أعتقد بأن هذه الأوراق ستُوَضِّح لي حقيقة مقتل خالي.

ما قصصته عليكم الآن هو ما كان يدور في عقلي أثناء جلوسي بنفس الطريقة وفي نفس مكان بدايتي في قراءة مذكرات خالي، وبينما كان رأسي مشتتًا في التفكير في أمور عدة لعل أهمها ما حدث لأهلي في بلدي السويس، ومؤخرًا لغز مقتل خالي؛ التقطت أذني صوتًا أعتقد بأنني سمعته من قبل يقول: «**يا أستاذ أمين**» لكنني لست متأكدًا هل هي تهيؤات أم ماذا، لذلك لم أُعره اهتمامًا وقررت الانتظار في مكاني حتى يأتي التأكيد، فعاد نفس الصوت ليتكرر مرة أخرى بنفس الكلمة ولكن هذه المرة بحدة أكثر من التي قبلها.

نظرت من الشرفة فإذا به عم سالم يحمل كيسين من الورق المقوى تحت إبطيه ومستندين على كلتا معصميه.

أمين: صباح الخير يا عم سالم.

سالم: صباح النور إيه بقى يا أمين بيه؟! قول مساء الخير، دا احنا داخلين على العصر!

أمين: نمت امبارح متأخر والله يا عم سالم، تعالى اطلع بدل كلام البلكونات بتاع الحبيبة دا.

دخلت لغرفتي لكي أرتدي ثيابًا أخرى غير ثياب النوم؛ لكنني سمعت صوته ينادي من جديد: «الباب مقفول يا أمين بيه».

تخليت حينها عن فكرة تغيير ملابسي وذهبت على الفور لأفتح له الباب.

دخل عم سالم ووضع ما كان في يده على منضدة في مدخل المنزل ثم بدأ في النظر لي وعلى وجهه علامات الاندهاش موجهًا لي سؤالًا.

سالم: بتقول نمت امبارح متأخر ليه بقى يا أمين بيه؟

أمين: مافيش.. لقيت ورق لخالي حسين الله يرحمه كان كاتبه قبل ما يموت بخط إيده فقُلت أتسلى فيه.. ألا قل لي يا عم سالم تعرف حاجة عن قتل كريمة بنت شيخ الخفر؟

سالم: هاه! انت إيه اللي عرفك بالحكاية دي؟

أمين: لا مافيش، أصل أمي كانت حكِت لي الحكاية دي قبل كدا، وقالت لي إنهم كانوا مسكوا حرامي وأهله حبوا ينتقموا من شيخ الخفر وقتها فولعوا في البيت بتاعه.

سالم: إيه؟ آه آه دا حصل فعلًا.

ظهرت على وجه عم سالم علامات الريبة الشديدة منذ بداية حديثي معه في هذا الموضوع، وذِكْرِي لسيرة كريمة أمامه، وشعرت بأنه يضيِّق دائرة المناقشة، فقررت إغلاق هذا الموضوع بنفسي.

أمين: ما علينا، إيه اللي جايبه معاك في الأكياس الورق دي يا عم سالم بس؟!

سالم: ولا حاجة، دي الأصول يا غالي يا أمير يا ابن الأُمَرَا، دول شوية عيش وحتة جبنة قريش وخيارتين عشان تفطر، زمانك على لحم بطنك من صباحية ربنا، وشوية سكر وشاي لزوم الحَبْسَة بعد الفطار.

أمين: فيك الخير والله يا عم سالم، فعلًا والله عندك حق أنا ما أكلتش من امبارح ونسيت إني جعان أصلًا.

سالم: هاسيبك أنا بقى تفطر وتعدل مزاجك وأنا هانزل السوق أجيب لك شوية خضار تخليهم عندك وقت ما تجوع تاكل.

أمين: تسلم، ما اتحرمش منك ولا من زوقك يا محترم، استنى أجيب لك فلوس من جوا عشان يبقى معاك بزيادة.

سالم: عيب اللي بتقوله دا يا أمين بيه انت ضيفنا، وإن ما شالتكش الأرض نشيلك فوق راسنا.

أمين: ربنا يعزك يا رب بس برضه هتاخد فلوس معاك بزيادة عشان لو احتجت منك حاجة بعد كدا أبقى أقول لك على طول وما اتحرجش منك.

سالم: خلاص ما دام مصمم يبقى مش هازعلك.

أسرعت إلى غرفتي وأحضرت ما يلزم لشراء الخضار ويزيد قليلًا؛ إكرامًا لما فعله هذا الرجل منذ لحظة وصولي إلى هذه القرية أمس، ثم أعطيته المال وذهب لحيثما قال.

تضييق حلقة النقاش من عم سالم أثناء حديثنا عن وفاة كريمة ابنة شيخ الخفر وحبيبة خالي؛ زادني إصرارًا على استكمال قراءة الأوراق في أسرع وقت، لذلك تناولت وجبة الإفطار سريعًا وتبعتها بكوب من الشاي وذهبت لإحضار الأوراق ثم جلست مكاني في الشرفة من جديد مستكملًا القراءة.

* * *

3 نوفمبر 1945 م

حسين يتحدث:

– عدت إلى المنزل بعد تقديم مراسم العزاء؛ ولكن أي عزاء هذا؟! عزاء من اختارها العقل وكان القلب مسكنها!

الحادث ليس ببعيد؛ لكنني فكرت في كل الأمور.. خطر في بالي الالتحاق بملاك الجنة فالحياة بدونها لا تستحق المُعافرة، وشغفي للدنيا كان للوصول إليها لكنه ذهب بذهابها.

لكن هل إذا لحقت بها سنكون معًا؟

قلبي يوسوس لي بأن أُريحه من التفكير في صعوبات العيش بدونها، ويحثني على إنهاء حياتي بيدي؛ لكن عقلي يوضح لي الموضوع من الناحية الدينية، فَشَتَّان بين انتحاري واستشهادها.. هي في أعلى درجات الجنة، أما أنا فسيكون سكوني أسفل سافلين.

يا الله!! ليتنا نستطيع إيقاف الزمن عند اللحظات التي كنا بها سعداء. ليتنا نستطيع العودة بالزمن لندرك قيمة ما كان بأيدينا ولنقضي أطول الأوقات مع من نحب، ليتنا نستطيع مجاراة الزمن فيما يُخلِّفه لنا من ذكريات ومن آلام الفقد المُفاجئة.

دائمًا ما اعتدت على سماع هذه الجملة: «يدخل الشخص حياتك جديدًا، فتجتمع رغباتكما سويًّا في إسعاد كل منكما للآخر، وما إن تضمن وجوده في حياتك؛ تقل حدة انبهارك به رويدًا رويدًا حتى تنعدم تمامًا، ويصبح شخصًا مألوفًا بالنسبة إليك، ثم يعود غريبًا كما كان بمرور الزمن».

لكنني لم ولن أشعر مطلقًا بهذا الشعور مع كريمة، أعرفها مذ كنا صغارًا، وشعوري دائمًا ما كان يزداد بريقه كلما رأيتها أكثر فأكثر. تأثير

سماع صوتها على أذني كالعصافير التي تُغرد كل صباح. لهجتها ليست كباقي البشر، كأنها ناي عُزف عليه في آخر الصعيد فسمع صداه من سكن في عروس البحر المتوسط مُستبشرًا.

كل هذا كان يدور في عقلي ولم أَبُح به، ليس رهبة من أن يرى الخلق انكساري لفراق كريمة؛ لكنه كان بمثابة ميثاق عهد بيني وبين ذاتي مَفاده بأننا جميعًا نعاني من آلام الفقد. الفائز هو من لا يكرر نفس المأساة من جديد، أما الخاسر فهو من ينساق وراء قلبه ليعيد تكرار خوض نفس الشعور السيئ لمرات عديدة، فيصبح قلبه رمادًا من نيران تجاربه، أنا اخترت أن أكون الفائز.. لذلك لن أُعيد هذه الخطوة مجددًا وسأعيش على ذكرى الكريمة.

قررت أيضًا أن أجاري الزمن وأن لا أُوقِف حياتي باستثناء تلك العاطفية، وعزمت على استكمال الحياة المهنية لذا اتخذت قرارًا بإنهاء إجازتي الصغيرة وسأعود إلى القاهرة من جديد صباح اليوم التالي.

لملمت ملابسي التي أحضرتها معي في حقيبتي من جديد وعزمت على أن لا أخبر أحدًا إلا حين مجيء الصباح وتُصبِح المغادرة هي الطريقة الأنسب أمام الجميع لنسيان ما حدث وتخطيه.

انتهيت من تجهيز حقيبتي وعدت إلى سريري مستندًا بالجزء العلوي من ظهري إلى ظهر السرير النحاسي، بينما كان الجزء الأسفل منه مستندًا على وسادة، يداي متشابكتان فوق بطني، أما ما تبقى من جسدي فأطلقته على السرير حرًّا طليقًا.

أغمضت عيني ساحبًا شهيقًا واسعًا فعاد عقلي ليُداعبني من جديد بذكريات كريمة، رأيتها أمام عيني بفستان أبيض وشعرها يصل لأسفل ظهرها؛ لكنه كان أكثر نعومة مما كان عليه في الدنيا.

كأن وجهها يُشع نورًا وبشرتها ازدادت بريقًا ثم بدأت تقترب مني أكثر فأكثر حتى توقفت أمامي مباشرة. استقبلتها بوجنتين كانتا على وشك التشقق من ابتسامتي البلهاء كدليل كافٍ على عدم استيعابي لوجودها من جديد بعدما تذوقْت مرارة الفراق؛ لكنها لم تكن سعيدة كما كانت دائمًا لأول مرة، حاولت الإمساك بيدها فتَمَنَّعت..

حسين: انتِ أول مرة ترفضي إني أمسك إيدك!

كريمة: إزاي عاوزني أحط إيدي في إيد اللي كان سبب في قتلي!

حسين: أنا السبب في قتلك يا كريمة؟!

كريمة: أيوة انتَ السبب.

حسين: إزاي وانتِ شايفة أنا متأثر قد إيه بغيابك؟ ما عرفتيش الوعود اللي وعدتها لنفسي؟ طب مش حاسة بحجم الدمار اللي انتِ سببتيه في قلبي نتيجة فراقك؟

كريمة: عاوز تعرف انت قتلتني إزاي؟ ما خطرش في بالك تسأل نفسك عن الحلم اللي انت حلمته في نفس اليوم اللي أنا اتحرقت فيه؟

انت بتكدب على نفسك ومصمم تثبت لروحك إنك ما لكش علاقة بالموضوع.. فكَّر أنا اتقتلت ازاي وليه قبل ما المُوجة تيجي وتشيل الكل وتاخد أحبابك قدام عينيك واحد واحد وتفضل انت في الآخر لوحدك.

وما إن قالت هذه الجملة حتى استدارت إلى نفس الوجهة التي جاءت منها ورحلت، رحلت دون أن تُبالي لصرخاتي عليها لكي تنتظر وأستطيع فهم ماذا تقصد بكلامها، رحلت كما رحلت أول مرة بلا استئذان أو مراعاة لشعوري وزادت من نيران قلبي.

تأثير كلماتها على قلبي كان بمثابة حدوث حريق بسبب تسرب لغاز البيوتان، ثم استخدموا الماء لإخماد النيران!

حتمًا سيزداد اشتعاله، وهو ما حدث تمامًا لقلبي.

وبينما كان عقلي في عالمه الموازي لا يعرف كيف السبيل للوصول لرضا الكريمة مرة أخرى، جاء له ما يُجْبِره على الخروج من هذا العالم والعودة للواقع الافتراضي.. فقد سمعت صوت شيء قد تهشم، فنظرت بعيني سريعًا لرؤية ما حدث؛ لكنني فوجئت بشيء لم أكن أتوقعه على الإطلاق وليس له إلا دلالة واحدة، وهي أن واقعي الافتراضي أصبح مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا غريبًا مع عالمي الموازي.

الجرة الصغيرة التي كانت قد كُسِرت في أول ليلة لي بالمنزل ولملمت بقاياها وألقيتها بيدي في سلة القمامة وجدتها كما هي أمامي في نفس المكان الذي وقعت فيه أول مرة وبنفس حجم الدمار الذي حدث لها في المرة الأولى..

كيف جاء هذا الحطام إلى هنا؟

لأفترض أنني خانتني الذاكرة ولم أحمله من مكانه.. ما هذا الصوت الذي سمعته؟!

يبدو أن هذه الأسئلة المخيفة التي كانت تدور في رأسي واحدًا تلو الآخر وتُعاد مرارًا وتكرارًا قد عرفت سبيلها إليَّ؛ لكن قُطِع حبل أفكاري عند رؤيتي لنفس القط الأسود يقف في أحد أركان الغرفة

ناظرًا إليَّ، وكأن عينيه ستُطلِقان كرات من اللهب تجاهي، وسرعان ما خرج من الباب متجهًا للخارج.

ازداد الأمر تعقيدًا عندما أردت الخروج من الباب للحاق به فوجدته مغلقًا كليًّا!

نفس الموقف حدث بنفس التفاصيل مع أختي فاطمة من قبل!

سُرعان ما خطر في بالي الحديث الذي دار بيني وبين كريمة قبل قليل في عالمي الموازي، وحديثها عن ذلك الحلم الذي حلمته قبل وفاتها.

نعم حدث أكثر من مرة بأنني فكرت في هذا الحلم؛ لكنني كنت أحاول تصديق خداعي لنفسي بأن ما حدث كان غير منطقي، وأنه من واقع المصادفة ليس إلا!

لكن أيضًا كانت أختي شاهدة على هذا قبل مجيء أبي!

سأعيد ترتيب الأمور مرة أخرى عل وعسى يتمكن عقلي من إيجاد سبيل للخروج من هذا المأزق، وسأبدأ بالتفكير بصوت عالٍ..

في الليلة الأولى من عودتي إلى البلدة كُسِرت الجرة دون أن يلمسها أحد. كان هذا تزامنًا مع تفكيري في كريمة ولقائي بها صباح اليوم

التالي. كان القط يقف بجوار الجرة المكسورة وسرعان ما خرج من الباب؛ لكن هذه المرة كان الباب مفتوحًا بعد خروجه!

عندما حلمت بالحلم المشؤوم استيقظت فوجدت نفس القط أمامي وأيضًا خرج مسرعًا ثم جاءت أختي فوجدت الباب مغلقًا!

نفس الموضوع حدث منذ قليل وأيضًا وجدت الباب مغلقًا!

حتمًا سيكون القط الأسود هو الإجابة على كل هذه التساؤلات، لكن كيف وأنا لا أستطيع الإمساك به أو حتى الاقتراب منه؟!

لكن سمعت شيئًا ما بداخلي يقول لي «كيف لك يا طبيب يا مُتعلم أن تنشغل بالتفكير في هذه الخرافات وتعتقد أن القط هو سبب هذه المصائب!»..

وبينما كنت مستغرقًا في التفكير وأنا على سريري ذهبت إلى نوم عميق لأفيق على فاجعة جديدة!

الفصل السادس

« جريمة جديدة »

4 نوفمبر 1945 م

حسين يتحدث:

– بعدما تمكنت من النوم لسويعات قليلة في عددها لكنها كانت عميقة في تأثيرها على الخلايا العصبية الخاصة بإراحة الجسد؛ وجدت نفسي أحلم حلمًا آخر!

الحلم هذه المرة كان يخص والدي.. كان متواجدًا في مخزن الهشيم وأنا كنت معه؛ لكنني اتخذت ساترًا لكي لا يتمكن من رؤيتي، ثم على سبيل الدعابة أشعلت عود ثقاب وألقيته من فتحة الشباك الصغيرة فوق الهشيم، لأرى توهُّج النيران في أسرع وقت ممكن، وامتلأت الغرفة بالدخان المصاحب للاشتعال، وكان أبي مُحاصَرًا في المنتصف والنيران تزحف تجاهه من كل حدب وصوب حتى تمكنت من الإمساك بجلبابه، فالوصول لجسده، حتى سيطرت عليه كليًّا وسقط على الأرض. وبعدما كان صراخه مرتفعًا؛ هدأ تدريجيًّا حتى اختفى تمامًا.

المدهش في الأمر أكثر من ذلك أنني كنت أراه يحترق ولم أتحرك لإنقاذه، بل الأصعب أنني مَن ألقيت عود الثقاب بيدي عمدًا، بل الغريب أن صوت ضحكاتي كان يرتفع حد السماء وكأنني انتصرت انتصارًا عظيمًا!

استيقظت فورًا من هذا الكابوس اللعين واستعذت بالله من الشيطان الرجيم، ثم قرأت آية الكرسي، فنظرت للساعة الموجودة على الحائط لأجد أن الوقت يكفي لارتداء ثيابي سريعًا وتوديع أهلي ثم المغادرة للحاق بالقطار المتجه إلى القاهرة.

بالفعل قمت بتغيير ملابسي سريعًا وأمسكت بحقيبتي التي كنت قد قمت بتجهيزها في الليلة الماضية وخرجت عليهم لأودعهم وأذهب.

وجدت أمي وإخوتي يسرعون تجاهي!

زبيدة: رايح فين بالشنطة اللي في إيدك دي يا حسين؟

حسين: مسافر يا أمي.

زبيدة: وانت لحقت تقعد عشان تسافر؟ وجاي تسافر وانت في حالتك دي؟

حسين: ما لها حالتي يا أمي؟ ما لها حالتي؟! إيه يعني لما أفكر أتجوز بعد كل العمر دا ولما آجي آخد خطوة حب عمري تموت موتة بشعة زي دي؟! عادي..

كانت الجملة الماضية تخرج من فمي وعيني تطفو فوق بحر من الدموع.

أماني: هون على نفسك يا حبيبي كله بيتعوض.

سعاد: على الأقل انت حبيت والطرف التاني كان بيبادلك نفس الشعور، جربت تتجوز جوازة صالونات؟ حد انت ما تعرفوش أساسًا ولما تبدأ تتقبل وجوده في حياتك وتسلم للأمر الواقع يسيبك ويمشي وما تلحقش حتى تخلف منه حتة عيل؟ وتبقى زي البيت الواقف! ولما قلبك يرجع يدق تاني يختار الشخص الغلط! الشخص اللي مش فارق معاه ومش شايفك أصلًا!

انت أرحم من غيرك بكتير يا دكتور..

صدى هذه الكلمات كان كتأثير الصاعقة التي تفتك بأي شيء تقترب منه، وازداد معدل سقوط قطرات الدموع من عيني؛ لكن سرعان ما استعدت توازني ونظرت إلى عينها وخاطبتها هادئًا:

حسين: حاجتين اتنين يا سعاد الإنسان مالوش اختيار فيهم، الأولى هو ابن مين وعنده إيه!

والتانية هي قلبه، القلب اللي ما لناش أي سُلطة عليه وبنعمل دايمًا اللي يريحه بحجة إننا نكون مبسوطين، القلب اللي ما بيعرفش تمييز طبقي ولا مستوى تعليمي، أنا عارف إن الشخص اللي انتِ تقصديه يبقى أنا.. لكن إحنا الاتنين مساكين، إحنا الاتنين ضحايا الحب ومش شرط إن قلبي يتعلق بيكِ زي ما اتعلقتِ بيَّ.

كما وقعت كلمات سعاد على قلبي كالصاعقة، فقد ضربت كلماتي قلبها كزلزال بقوة ثماني درجات على مقياس ريختر، قاضيةً على الأخضر واليابس به، كلٌّ منا قلبه مُحطَّم إثر الحب لنفس الأسباب والنتيجة واحدة في النهاية أيضًا «وجـــــــــع».

كلٌّ منا خاض التجربة وفشل في الوصول لنتيجة تُرضي الطموحات وترفع من المعنويات.

بعد صمت استمر للحظات ممن حولنا متعجبين من جُرأة سعاد في إطلاقها هذه الكلمات من فمها كالعيار الناري؛ قررت أختي أماني قطع أحبال هذا الصمت.

أماني: كل واحد فينا بينام على الجنب اللي يريحه، شوف اللي يرضيك يا حسين واعمله.. انت أكتر واحد أدرى بمصلحتك وانت الوحيد اللي هتشيل شيلتك ما حدش هيشيل عنك.

يبدو أن أماني هي الوحيدة التي لا يعرف القلب السيطرة على قراراتها، وبينما كنت على استعداد للمغادرة سألت أمي عن مكان أبي لتوديعه أيضًا؛ لكنني صُعِقْت عندما بادرت أختي فاطمة بالرد قائلة بأنه في مخزن الهشيم.. كنت أريد توديعه أي إلقاء السلام لحين اللقاء لكن...

وطبقًا للمثل الشعبي «هبدة بالمرزبَّة ولا عشرة بالشاكوش»؛ فقد استقبلت كلمات فاطمة بنفس تأثير هذا المثل على رأسي، مُتذكرًا ذلك الحلم اللعين الليلة الماضية.

كانت الرؤية أمام عيني غير واضحة كصباح باكر ليوم كان ممتلئًا ببخار الماء «الندى» في فصل الشتاء، ألقيت حقيبتي التي كانت بيدي على الأرض وركضت بأقصى سرعة متوجهًا إلى مخزن الهشيم كالمجنون، وبينما كنت في طريقي للخروج من الباب الداخلي للمنزل سمعت أمي تنادي بصوت عالٍ متعجبة من ردة فعلي لسماع كلام أختي قائلة: انت رايح فين يا ابني؟ ومال وشك قلب ألوان ليه كدا؟

لم أهتم لما سمعت وواصلت الركض، وأثناء نزولي درجات السلم رأيت الخفير سالم يصعد، يبدو أنه كان قادمًا لنا.. كان يستعد في البدء بالحديث لكنه فوجئ بأنني انطلقت إلى وجهتي مسرعًا دافعًا إياه جانبًا.

وصلت إلى المخزن لأرى بوضوح تجمُّع أهل القرية أمامه، فازداد معدل ضربات قلبي تلقائيًّا. أزحت الحضور من أمامي بيدي يمينًا ويسارًا كما فعلت يوم فراق كريمة تمامًا، لأجد جسد أبي مُلقًى على الأرض في نفس المكان الذي سقط فيه في حلمي!

* * *

19 أبريل 1968 م

أمين يتحدث:

– ماذا يحدث! مات جدي بنفس الطريقة التي رآها خالي حسين؟! ليست المرة الأولى؛ فقد حدث مع كريمة نفس الموضوع أيضًا! أي تفسير لهذه الأحداث؟!

«الخفير سالم»! هل هذا هو عم سالم الصياد؟!

أثناء طرح عقلي لهذه التساؤلات سمعت صوت عم سالم ينادي من جديد، يبدو أنه أحضر ما ذهب لإحضاره لكنه عاد في الوقت المناسب فاستقبلته من جديد.

سالم: لا مؤاخذة يا أمين بيه اتأخرت عليك، بس الجماعة بتوعي كانوا تعبوا شوية قُلت أروح أوديهم للحكيم الأول وبعدين أعدي أجيب الخضار.

أمين: ولا يهمك يا راجل يا طيب، ألف سلامة عليها، أهم حاجة إنها تكون بخير.

سالم: دول شوية سخونية لا راحُم ولا جُم وشوية وهتبقى زي القطر -يضحك-.

أمين: طب أنا مش هاطول عليك عشان تلحق تروح تقعد جنبها وتطمن عليها، بس أنا عاوز أسألك سؤال.

سالم: سؤال واحد؟ قول اتنين تلاتة عشرة، براحتك خالص أنا معاك لآخر النهار.

أمين: لما سألتك على موت كريمة حسيت إنك بتقفل الكلام ومش حابب تتكلم، بس أنا ما علقتش على الموضوع، بس دلوقتي عرفت إنك كنت موجود لحظة موت جدي ثروت.. ممكن أعرف إيه اللي حصل يومها؟

سالم: يا بيه القصة دي عفا عليها الزمن خلاص وما لناش إننا نفتحها من تاني ولا نتكلم فيها.. بس ما دام انت الشيطان راكب

دماغك فأنا هاريحك. بس دي أول وآخر مرة هتاخد مني رد على أي حاجه بخصوص الموضوع دا، بص يا سيدي.. كريمة بنت شيخ الخفر اللي خالك حسين كان بيحبها أنا كمان كنت باحبها، حبيتها من أول مرة عيني شافتها فيها، عارف يا بيه كإنك كنت جعان وكلت!

كريمة كانت إحساس الشبع بعد الجوع، الشُرب بعد العطش، كنت باحس إنها بتروي قلبي العطشان، كإنك كنت راميني في وسط الصحرا في عز الحر وبعدين اديتني قُلِّة فخار صاقعة تلج، كنت ساعتها حتة خفير صغير لسَّا مِتعين، وأبوها طلب مني أروح له البيت لما أخلص شغلي عشان أدي له التمام إن وردية خفر دوار العمدة بتاع الصُبحية خلصت واستلم مكانهم خفر الليل، وأول ما وصلت خبطت على الباب لقيتها هي اللي بتفتح لي.. خطفتني يا أمين بيه بجمالها خطف، شعرها أصفر وعيونها زُرْق ووشها أحمر ومدور زي البدر.

تيقنت الآن أن عم سالم لا يُخْفِي عني شيئًا وأنه قد بدأ مناقشتي بصراحة تامة؛ لأنني كنت قد قرأت مواصفاتها من قبل في مذكرات

خالي وكانت تمامًا كما قال.. فَمَنْ مِنَّا بمقدوره تكذيب حُب القلب المرسوم في العيون؟!

ثم واصل حديثه: كانت فاكراني سعدية الخياطة جارتهم علشان كدا فتحت الباب بسرعة من غير ما تلبس حاجة على شعرها، اتكسَفِت ساعتها لما فَتَحِت الباب وما شافتش سعدية اللي كانت مستنياها، وشها إحمر أكتر وزود جمالها أكتر وسابت الباب مفتوح وجريت تنادي على أبوها، ومن بعدها قررت إني أراقبها من بعيد لبعيد، وبقيت حافظ كل مواعيد خروجها.. إمتى بتنزل السوق وامتى بتروح للخياطة..

لحد ما في يوم كنت مقرر إني هاعترف لها بحبي وإني ما بقيتش قادر أعيش مراقبها في السر على طول كدا، لقيتها خارجة الصبح بدري من دارهم بتتسحب وبتقفل الباب بشويش على عكس طبيعتها فمِشِيت وراها، لقيتها دخلت الأراضي ووصلت عند طلمبة وكانت المفاجأة إن واحد كان مستنيها هناك!

الواحد دا كان خالك الدكتور حسين. انفطر قلبي وغصب عني لقيت قلبي مليان كُرْه من ناحيته حتى وأنا ما شُفتش منه غير كل خير، بس حبي ليها كان عاميني، حبي ليها كان أقوى من إني اتنازل عنها

لغيري وكفيل يخليني أكره أي حد هي تكون بتحبه غيري حتى لو كان الحد دا لا أذاني ولا شُفت منه حاجة وحشة.

لما سمعت إنها ماتت محروقة وأهل البلد ساعتها قالوا إن أهل الحرامي اللي مسكه شيخ الخفر؛ العمدة خاف يِبَيِّتُه في بيته ليلة واحدة عشان أهل البلد ما يقوموش عليه، وساعتها طلب مني إني أسلمه للنُّقْطَة، ومع إن قلبها ميال لحد غيري إلا إني قررت إني أنتقم من الحرامي، ولعلمك دي أول مرة أتكلم في الموضوع دا مع حد.

أمين: تنتقم من الحرامي؟ مش بتقول إنه طلب منك تسلمه للنُّقْطَة؟

سالم: ما أنا ما سلمتوش، العمدة سلمهولي وإيده متكتفة ورا ضهره على إننا رايحين النقطة، بس أنا خدته لنفس المكان اللي كانت كريمة بتقابل فيه خالك وقتلته بدم بارد، ساعتها كنت فاكر إني هاشفي غليلي منه إنه حرمني من طلتها حتى لو ما كانتش بتحبني وإنها على الأقل أخيرًا هتعرف إني كنت با حبها حتى لو كان الكلام دا بعد ما فارقتني.. وقتها كنت مرعوب إن العمدة تيجي له إشارة من المركز إني ما سلمتوش وينكشف أمري وأروح في داهية أو حتى أهل الحرامي يوصلوا لي ويقتلوني زي ما قتلوها؛ لكن لما سمعت باللي

خالك عمله وإنه اتهجم على العمدة في دواره وكان عاوز يضربه قُلت أضرب عصفورين بحجر.. الأولاني إني أداري قتلي للحرامي وأطلع منها زي الشعرة من العجين، والتاني إن لو الإشارة وصلت من المركز إن المسجون ما اتسلمش هاتِّهم خالك إنه اتعدى عليَّ وخطف المسجون مني.

أمين: طب وازاي رجعت للعمدة بعد كدا من غير ما تبلغه باللي حصل، وانت بتقول لو كان سألك كنت هتقول إن خالي اللي اتعدى عليك؟

سالم: ما هو أنا ما رجعتش، بعد ما قتلته ودفنته جنب الطلمبة هربت ورُحْت قعدت في البر التاني 3 أيام.. اللي خُفت منه حصل ووصلت الإشارة من النقطة بس مصائب قوم عند قوم فوائد يا بيه.

أمين: تقصد إيه بقى بالمثل دا؟

سالم: وأنا في البر التاني الأخبار وصلتني إنهم لقوا جدك النار مسكت فيه، فساعتها جات لي فكرة أهرب بيها من اللي حصل وأقدر ارجع البلد تاني، جريت على مخزن القش لقيت جدك واقع على الأرض والنار طالت جسمه كله لدرجة إني ما كنتش شايف له ملامح.

بعد كدا خدت نفسي وجيت جري على البيت اللي احنا واقفين فيه دلوقتي، جيت وأنا عاوز أكون أول واحد يبلغ خالك إن أبوه مات وأشوف نظرة الحسرة والانكسار بتنط من عينيه، بس ساعتها قُلت يا خسارة ما لحقتش أكون أول واحد لأنه قابلني نازل من على السلالم جري وكان عرف.

خدت نفسي جري على الدوار تاني وبلغت العمدة باللي قُلتهولك من شوية وإن خالك اتعدى عليَّ، بس ساعتها العمدة ما ركزش في اللي قُلته لأنه كان زعلان على موت جدك علشان كانوا صحاب وبينهم شغل، وسابني ومشي من غير ما يتكلم نص كلمة.

أمين: يااااااه! كل دا يطلع منك انتَ يا عم سالم؟

سالم: اللي يدوق الحب وحبيبه يرفضه.. الكُرْه يملا عينيه، أقبل أشوف حبيبي لغيري إزاي؟ دا غصب عني يا بيه.

أمين: الله! دا انت بتعرف تقول شعر كمان أهو؟ بس احمد ربنا إنك طلعت منها المرة دي سالم يا عم سالم.

رغم دهشتي الشديدة لِما فعله عم سالم وفقًا لحكاياته التي رواها قبل قليل، فلم أكن أتوقعه بهذا السوء أبدًا؛ لكنني قررت أن ألتمس له سبعين عذرًا لما بدر منه.

وفي هذا التوقيت لم يخطر ببالي سوى سؤال واحد وهو: لماذا قرر عم سالم مساعدتي عندما رآني رغم جِبال الكُره التي يحملها في قلبه لخالي؟!

بالتأكيد إجابته على هذا التساؤل ستوضح لي بعض الأمور لذلك وجهت له السؤال فأجاب:

- إحساسي بالذنب من ساعة اللي حصل ما بيخلينيش أدوق طعم النوم، مر على الزمن زمن ومهما حصل وجد في الأمور أمور مافيش مرة حطيت راسي فيها على المخدة إلا وجِه اللي حصل في بالي، ولما شُفتك حسيت إن ربنا بيديني فرصة أكفَّر بيها عن ذنبي ولقيت نفسي باساعدك!

اقتنعت بكلام عم سالم خاصة بعد رؤيتي للدموع تملأ عينيه ثم بادرت بالضحك معه قائلًا: بس على الله ما تزعلش مني في يوم من الأيام، حاكم انتَ زعلك وحش قوي..

ابتسم ابتسامة فاترة على استحياء ثم أمرته بالذهاب لرؤية زوجته المريضة وملازمتها حتى تكون على ما يُرام وتسترد عافيتها من جديد، ثم بعد ذلك يأتي إليَّ مُجددًا لاستكمال حديثنا.

* * *

7 نوفمبر 1945 م

حسين يتحدث:

أنا من مات ومن مات أنا لقي الموت كلانا مرتين

نحن كنا مهجـة في بـدن ثم صرنا مهجة في بدنين

– أستكمل حديثي معكم بأبيات الشعر هذه للشاعر أحمد شوقي، الآن وبعد ثلاثة أيام من رحيل أبي وبعد انتهاء مراسم العزاء ها أنا الآن أجلس منفردًا في غرفتي متأثرًا بجرحين عميقين لا ولن يقدر الزمن على محوهما من ذاكرتي.. حبيبتي ثم أبي!

أيٌّ منهما فقدت أكثر يا حسين؟ كريمة أم ثروت؟

كريمة كانت قلبك النابض والتي ظننت بأنك لن يُوجِعك أحد بعدها، يأتي عليك الزمن سريعًا جدًّا ليثبت لك أن الفراق تختلف آلامه باختلاف الأشخاص، وأن قلبك الذي كُسِرَ مرة من الممكن أن تصير مرتين.

مهما كان الأب ومهما كانت ما به من صفات تظن أنها سيئة؛ يبقى سندك، مهما كان غليظًا في وجهك وتعامله معك؛ فتأكد أنه أكثر مخلوق على وجه الأرض قد أحبك، مهما كانت الأشياء التي رفض أن يجلبها لك أو يسمح لك بفعلها؛ فَكُنْ على يقين بأنها في النهاية لصالحك.

* رسالة من الروائي للقراء *

«كان وجود أبي في حياتي شيئًا اعتياديًّا. اعتدت أن أراه، أن نتسامر سويًّا وأحيانًا تزداد حدة النقاش فيتمسك كلٌّ مِنَّا برأيه، أن أعمل معه يدًا بيد في مجال عمله.. كل شيء في حياتنا كان مألوفًا، الكثير من الفرح والقليل من الحزن.

حتى يوم وفاته ذهب لخالقه وهو على يدي، كلما رأيت شخصًا يعرفه لا أستطيع أن أتمالك نفسي وأجهش بالبكاء، كان هذا طيلة فترة العزاء.

في أول يوم بعد فقدانه وجدت عماتي وخالاتي في المنزل فلم أشعر بغيابه، وما إن انتهت الليالي الثلاث حتى فرغ البيت من زائريه ووجدت نفسي وحيدًا مُحاصرًا بين أربعة حوائط. وها أنا الآن بعد ثلاث سنوات ونصف من وفاته ما زلت وحيدًا لا سند لي..

فوالله لو كان الأب مجموعة من العظام فوق بعضها البعض لا يفيد ولا يضر سيكون سندك، وبرحيله سيتعرى جسدك وستُضْرب على بطنك.

فقدان كريمة وأبي بنفس الطريقة وفي أيام قليلة وبعد أن أحلم ليس بالأمر العادي. حتمًا هذا القط الأسود خلفه الكثير من الأسرار لذلك لا بد من الدخول في كواليسه؛ ولكن كيف؟!

خرجت من غرفتي ليلًا وذهبت تجاه غرفة أمي، طارقًا الباب طرقة واحدة؛ لاعتقادي بأنها خلدت إلى النوم لكنني سمعت صوتها تقول: «ادخل يا حسين».

تعجبت لمعرفتها صاحب الطرقة رغم أنني لا أملك طرقة مميزة، وفتحت الباب لأراها تذرف الدموع فقررت إخراجها قليلًا مما هي فيه قائلًا:

حسين: انتِ عرفتِ ازاي إنه أنا يا زبدتي؟

زبيدة: أنا ما عرفتش، أنا حسيتك، شميت ريحتك.. بكرة لما تتجوز وتخلف هتعرف معنى الكلام اللي باقولهولك دا.

لاحظت أمي ملامح الحزن التي رُسِمت على وجهي وتابعت كلامها معي سريعًا جاذبة رأسي لصدرها: يووه يقطعني يا واد يا حسين مش قصدي والله، أنا أقصد إن قلب الأب والأم بيحس بعياله.

وكأنك يا زبيدة كتبْتِ عهدًا على نفسك بأن تذيقيني من العذاب ألوانًا.. في الجملة الأولى ذكَّرتني بكريمة، ثم حاولت تلطيف الأمور فتذكرت أبي؛ لكنني أردت إنهاء المُلابسة سريعًا..

حسين «ضاحكًا»: واصلني قصدك يا زبيدة من غير توضيح، ألا قولي لي ما تعرفيش شيخ كويس كدا يكون ليه في الطالع والنازل والحاجات الغريبة دي؟

زبيدة: وانت ما لك ومال الحاجات دي يا ابني؟

حسين: أصلي قررت أشتغل دجال وأسيب الطب ههه، جرى إيه يا زبيدة؟ أنا على آخر الزمن هيبقى ليَّ في الحاجات دي برضه؟

كل الحكاية إن واحد صاحبي طلب مني أسأل شيخ منهم على حاجة تخصه هو ومراته، بس.

زبيدة: آاااه، أنا أعرف شيخ أفتكر إن أبوك راح له قبل كدا برضه علشان يسأل لواحد صاحبه على حاجة.

حسين: مكانه فين دا يا زِبْدة؟

زبيدة: في البر التاني عند محرقة الطوب، هتروح هناك وهتسأل على الشيخ سلامة.. مش فاكرة كان اسمه سلامة إيه لكن لو سألت عليه ألف واحد هيدلك.

حسين: هابقى أروح له بكرة بقى إن عشنا وكان لينا عمر.. تصبحي على خير يا امَّه.

ثم قَبَّلت رأسها وذهبت لغرفتي.

الفصل السابع

« عودة الكوابيس من جديد »

8 نوفمبر 1945 م

حسين يتحدث:

– كنت قد ذهبت لفراشي بعدما أنهيت حديثي مع أمي الليلة الماضية، ولأول مرة أستطيع النوم بشكل مقبول نسبيًّا، استيقظت وبدلت ملابسي وانطلقت في طريقي، كما وصفت لي أمي بالأمس «طريق الذهاب للشيخ سلامة».

وصلت إلى المَعدِّية ووقفت منتظرًا المركب الذي سَيَقِلُّني إلى البر الثاني؛ ولكنني وجدت زحامًا لذلك وقفت في المقدمة لأستطيع الركوب مباشرة عندما يأتي المركب.

وصل المركب وبالفعل كنت من الأوائل الذين يصعدون على متنه، أيضًا رأيت أشخاصًا يحملون دراجاتهم على أكتافهم كنوع من أنواع رد الدين لهم كما حملوهم دائمًا؛ لكن لم أتعجب مما رأيت، فقريتي تتبع محافظة الغربية والبر الثاني لمحافظة الدقهلية، لا يوجد بيننا كوبري ولا طريقة واحدة للوصول إلى هناك أو العكس إلا هذا المركب الحديدي الكبير، ويمر حبل من خلال حلقات مثبتة على متنه، طرفه الأول بلدي والطرف الآخر البر الثاني.

لعلك تتساءل ما فائدة هذا الحبل؟! سأجيب..

عندما يصعد جميع الركاب يبدأ الرجال الأشداء بالاصطفاف يمين الحبل ويساره بشكل أفقي، إذا افترضنا أن اتجاه الحبل رأسيًّا تمامًا كما كنا نلعب لعبة «شد الحبل» عندما كنا صغارًا، مُتَشَبِثِين به ويشدونه تجاههم، فينطلق المركب في الاتجاه المعاكس.

قررت أن أخوض هذه التجربة كما كنت أفعل أثناء طفولتي كنوع من أنواع الترويح عن النفس، جاذبًا الحبل تجاهي حتى وصلنا إلى وجهتنا، قاطعين قرابة ثلاثين مترًا بعرض النيل.

نزلت من المركب لأصعد درجات سلالم يقترب عددها من الخمسين درجة، أي إن الطريق يرتفع عن سطح البحر قرابة السبعة أمتار ونصف، إذا ما اعتبرنا أن ارتفاع الدرجة الواحدة خمسة عشرة سنتيمترًا. ورغم صعوبة الصعود إلا أنني لم أشعر مطلقًا بالإرهاق؛ وذلك لسببين، أولهما: الأشجار المرتفعة الموجودة حولي وهذا المنظر الخلاب المُسلي جدًّا لشخص يحب الطبيعة.

أما الثاني فهو اعتيادي على فعل هذا الشيء كثيرًا عندما كنت صغيرًا.

وصفت لي أمي أن الشيخ عند «محرقة الطوب» الموجودة في البر الثاني؛ لكنها لم تشرح لي طريقة الوصول، لذلك عندما صعدت أوقفت شخصًا غريبًا وسألته.

فضَّلت أن أسأل شخصًا غريبًا لا أعرفه خشية أن يكون أحد الركاب معي على معرفة بي ويتساءل في عقله «**لماذا يأتي الدكتور إلى هذا المكان**» وأُصبِح موضعًا للقيل والقال.

حسين: لو سمحت يا حاج.

أحد المارة: اؤمرني يا أستاذ.

حسين: الأمر لله، أنا بس كنت عاوز أعرف إزاي أوصل لمحرقة الطوب.

المار: عاوز تروح أي محرقة فيهم يا بيه؟

حسين: هو فيه هنا أكتر من محرقة؟

المار: آه.. فيه محرقة عند دوار العمدة ومحرقة تانية عند الجنينة.

حسين: الحقيقة مش عارف هي أي محرقة فيهم، اللي وصف لي المكان قال لي إنه عند المحرقة.

المار: يا بيه انت عاوز تروح فين بالظبط وأنا أدلك!

حسين: أنا عاوز أروح للشيخ سلامة.

المار: سلامة الدجال بتاع الأعمال؟ دا عند المحرقة القديمة اللي جنب دوار العمدة.

بدا على وجهي التوتر الشديد عندما قال جملة «**سلامة الدجال بتاع الأعمال**»؛ لكنني تظاهرت بعدم سماع ما تفوَّه به ثم أكمل حديثه: «هتمشي كدا علطول لحد لما تلاقي وسعاية كبيرة، هتلاقي في وشك دوار العمدة وعلى يمينك هتلاقي المحرقة وجنبها شارع.. أول بيت هيقابلك هو بيت سلامة الدجال».

هل من المصادفة مقابلة هذا الرجل الغريب الذي لا يعرفني قائلًا لي مرة «**سلامة الدجال بتاع الأعمال**» ثم يعيد كلمة «**الدجال**» مرة ثانية في آخر حديثه؟ هل القدر بمقدرته إيصال رسالة لي مفادها «**ماذا تفعل يا دكتور يا متعلم؟! هل هذا هو العلم الذي تعلمته؟ في نهاية المطاف تذهب للدجال لإعطائك تفسيرًا لما يحدث لك؟**».

لكنني لم ولن أستسلم لتساؤلات عقلي الباطن ومواعظه الآن، وقررت الذهاب من الطريق الذي وصفه لي ذلك الغريب، قدمت له الشكر على المساعدة وذهبت حيثما قال.

وصلت إلى هناك فوجدت الوصف كما قيل لي بالضبط؛ لكن لم يَقُل لي أنني سأرى هذا الكم من البشر ينتظرون أمام باب «**الدجال**» على حد وصفه!

سِرْتُ وسط الزحام دافعًا الناس يمينًا ويسارًا لإزاحتهم عن طريقي، حتى وصلت إلى الباب لأجد فتاة صغيرة أمامه أعتقد بأنها لم تتجاوز السبعة عشر عامًا ترتدي عباءة ريفية مشجرة وتضع على رأسها طرحة لتغطي ما يظهر من رقبتها وتحتها قُماطَة تَقْمُط بها رأسها، يبدو أنها تعاني من الصداع.. وفي الحقيقة لديها الحق الكامل في ذلك.

حسين: لو سمحت أنا كنت عاوز أقابل الشيخ سلامة.

الفتاة: شايف البشر اللي حوالين منك دول؟ كلهم عاوزين يقابلوا الشيخ سلامة.

حسين: بس أنا كنت محتاجه في موضوع مهم جدًّا ما يستحملش التأخير.

الفتاة: شايف البشر اللي حوالين منك دول؟ كلهم عاوزينه في موضوع مهم جدًّا ما يستحملش التأخير، اللي عاوزة تتجوز واللي ما بتخلفش واللي سِلْفِتها عاملة لها عمل جوزها يشوفها قردة،

وبييجوا بقى زي ما انت شايف كدا متعشمين في الشيخ أصله بيعالجهم ببلاش.

حسين: طيب متشكر جدًّا أنا هاحاول آجي له في وقت تاني يكون العدد فيه خفيف شوية.

الفتاة: وفي كل مرة برضه هتيجي هتلاقي نفس الزحمة دي، فيا ريت تفتَّح مخك معايا.

حسين: أفتح مخي إزاي مش فاهم؟!

الفتاة: فتح مخك يعني قِبْ، مَيِّز يا بيه.

حسين: أقب ازاي وأميز إيه؟!

الفتاة: يعني خليك شواف، قب بنص ريال تلاقي نفسك قدام الشيخ على طول.

حسين: آه آه اتفضلي.

ثم طلبت من الحضور أن يصطفوا صفًّا واحدًا، ودون أن يشعر أحد بوجودي أمسكتني من يدي وجعلتني في مقدمة الصف. المال بمقدوره فعل أي شيء في أي مكان وبأي طريقة.

أنا لا أحب الرشاوي لكن الغاية تبرر الوسيلة، أو أنا من قررت ذلك الآن؛ خصوصًا لأنني في مأزق كبير لن يُخرجني منه سوى هذا الشيخ!

طلبت مني الفتاة الانتظار قليلًا حتى يخرج من بالداخل، فبدأت التأمل في وجوه الحضور لأجد أن حديث الفتاة صحيحًا، وجوههم خير سبيل للتعبير عن أحوالهم، التعب يظهر عليهم جميعًا، إرهاق الحياة بشكل عام وما جاؤوا من أجله للشيخ بشكل خاص، كل منهم يريد أن تُحل مشكلته.

طرقت الفتاة بأصبعيها السبابة والوسطى على كتفي لإخباري بأن الضيف قد خرج من الباب الخلفي وحان دوري والشيخ في انتظاري الآن.

سرعان ما دخلت من الباب لأجده منزلًا قديمًا مبنيًّا من الطوب اللبن، والسقف عبارة عن عروق خشبية كُسِيَت بالهشيم، أتحرك في المنزل كما وصفت لي الفتاة «آخر الطرقة على الشمال».

وصلت للغرفة التي كانت تقصدها الفتاة فلم أجد لها بابًا، بل كانت قطعة قماشية كبيرة تشبه إلى حد ما السِتار، وبينما كنت أود النظر للفتاة من جديد لأتأكد من أن هذا المكان هو ما تقصده؛ سمعت صوت أحد الأشخاص يقول: «ادخل يا ابني ادخل، يا أهلًا وسهلًا.. هي البت سامية بنت الكلب مش هتبطل الحركات اللي بتعملها دي.. اقعد استريح انت جاي من مشوار طويل».

أشار لي بالجلوس على أريكة خشبية متهالكة كانت بجانبه فجلست. كانت أمامه منضدة وفوقها مبخرة كبيرة من النحاس، أما هو فكان يرتدي جلبابًا أخضر اللون والكثير من القلادات يدوية الصُنع ذات الشكل الغريب، منها التي على شكل جمجمة والأخرى بهيئة تمساح وتلك ثعبان وهكذا، يضع على رأسه عمة بيضاء تتوسطها طاقية لونها كلون جلبابه، بينما كان يرتدي في يده خاتمًا لم أستطع تفسير الشكل المنحوت عليه.. يبدو أن هذا الرجل درويش!

أول ما أدهشني هو معرفته بمجيئي من مكان بعيد وتأكيده على ذلك حينما قال «اقعد استريَّح انت جاي من مشوار طويل»

زادت دهشتي عندما سألته «مَن هي سامية؟» فأجاب: «سامية اللي واقفة برا.. مش لسَّا واخدة منك نص ريال؟».

بقدر ما كان الموقف مرعبًا لكن كان بمثابة زيادة ثقة في نفسي بأنني اخترت المجيء للمكان الصحيح..

حسين: عرفت منين يا مولانا إني اديتها نص ريال؟!

سلامة: شايفني فارش بخضار في السوق يا دكتور؟ دي شُغْلتي ولازم أعرف كل حاجة.

حسين: مش قصدي والله اللي انت فهمته يا مولانا والله بسسس!!! إيه؟ انتَ قُلت دكتور؟!

سلامة: برضه مصمم تسأل أسئلة غريبة؟ عمومًا يا دكتور حسين طلبك مش عندي.

ازدادت علامات الذهول والريبة على وجهي في نفس الوقت؛ لكنني حاولت التماسك أطول فترة ممكنة رغم الرعب الشديد الذي تسرب لدواخل قلبي..

حسين: انت حكمت عليَّ بدري قوي يا مولانا، طب مش كنت تسمع الأول أنا جاي لك ليه؟

سلامة: اتفضل يا ابني سمعني.

حسين: أنا حلمت حلمين.. الحلم الأول إن البنت اللي كنت باحبها وكنت خلاص رايح أطلب إيدها تاني يوم ماتت محروقة وصحيت من النوم فعلًا لقيتها ماتت. الحلم التاني إن أبويا برضه اتحرق هو كمان في مخزن القش اللي عندنا في البلد وبرضه صحيت من النوم لقيته هو كمان محروق!

سلامة: خلصت؟

حسين: خلصت.

سلامة: طيب يا دكتور حسين طلبك مش عندي.

حسين: لما هو طلبي مش عندك، أُمال هيكون عند مين؟ الناس اللي برا دي كلها جاية ليه؟!

سلامة: يا دكتور حل مشكلتك دي لا هتلاقيها عندي ولا عند غيري ولا حتى أي مخلوق على الأرض، أنا آخرى أفك عمل، أَحَلِّي واحدة في عين جوزها علشان ما يتجوزش عليها.. لكن التعامل مع ملوك العالم السُفْلِي ماليش علاقة بيه ولا قَدُّه.

حسين: تقصد مين بملوك العالم السفلي؟!

سلامة: يا ابني لا أقصد ولا ما اقصدش ولحد هنا كلامي معاك انتهى.. لكن هانصحك نصيحة لوجه الله، لو عاوز ترتاح من اللي انت فيه قدام منك 3 طرق.. «يا تِطيع وتسَلِّم.. يا تِدَوَّر وتِتْعَلِّم.. يا تِضَحِّي بالكل وتِتْأَلِّم»

حسين: مش فاهم حاجة من اللي انت بتقوله دا!

يبدو أن الشيخ سلامة ختم كلامه معي بهذه الجملة ولن يتحدث معي مرة أخرى، فقد نظر إلى مبخرته وكَرَّر نفس الجملة ثلاث مرات وبعدها صاح بصوته عالٍ: «اللي بعده يا سامية ورجعي للراجل فلوسه، يا هنطاطي له يا بكرة الدنيا تدُوسه»

لم أخرج من الباب المخصص لخروج الضيوف وعُدْت مرة أخرى للفتاة..

سامية: خد يا بيه فلوسك، شكلك عينك فيهم.

حسين: خليهم علشانك يا سامية، أنا بس كنت عاوززز...

سامية: يا بيه خد فلوسك الله لا يسيئك، ما دام ما رضاش يخليني آخد الفلوس يبقى انت مشكلتك ما اتحلتش صح؟

حسين: أيوة صح.. وقعد يقول لي ملوك العالم السفلي ويا تطيع وتسلم يا تضحي وتتعلم ولا إيه، وكلام غريب كدا!

سامية: يا تضحي بالكل وتتألم!

حسين: أيوة قال كدا بالظبط.

سامية: آاااه، ربنا يسترها عليك، طب يا بيه انت شكلك ابن ذوات ومحترم، فنصيحتي ليك إنك ما تنامش لأن كل مرة عينك هتغمض وتروح في النوم هتحصل لك مصيبة أكبر من اللي قبلها، بس لو هتقدر على وجع الفراق يبقى تنام وتصحى تدَوَّر على الأَثَر وانت وحظك بقى يا تكشف السر وتقفل الموضوع للأبد يا تفتح على نفسك أبواب جهنم..

حسين: سر إيه؟

سامية: اللعنة.. سر اللعنة.

أنهت سامية هي الأخرى حديثها معي بهذه الجملة المبهمة تمامًا كَسَيِّدها، ثم أشارت إلى الطريق المؤدي للخروج في إشارة لي بوجوب ذهابي في هذه اللحظة، واستدعت الضيف الجديد للدخول، فذهبت.

سر اللعنة! أي لعنة؟! من المؤكد أن هؤلاء مختلون عقليًّا، ليس هناك تفسير غير ذلك، أحدهم يقول لي العالم السفلي والأخرى تتحدث عن لعنة! أي لعنة تتحدثون عنها يا أوباش؟ حتمًا أنتم كاذبون.

لكن كيف يكون هذا الرجل كاذبًا وهو لا يأخذ أموالًا؟

كيف يكون مجنونًا وهو علم بأمر النصف ريال؟

كيف لُمْحتال أن يعرف وظيفتي؟

ما الذي يحدث؟ لا أفهم شيئًا..

من سأفقد بعد كريمة وأبي؟

لا أريد أن أخسر أمي أو أحد إخوتي يا الله، سأصغي لنصيحة الفتاة ولن أنام مطلقًا؛ لكن كيف؟!

* * *

« الوصول لقمة الإرهاق البدني »

11 نوفمبر 1945 م

حسين يتحدث:

- جالسًا على كرسي مكتبي والساعة سَتَدُّق أجراسها معلنة الوصول إلى الثانية فجرًا بعد قليل، هذا هو اليوم الثالث لي دون أن تتذوق عيني المسكينة لذة النوم. بدأت علامات الشحوب الشديد في الظهور على وجهي. أصبح اللون الأسود هو اللون المسيطر على أسفل عيني. اختفى اللون الأحمر الذي كان واضحًا أول يومين نتيجة تأثير عدم النوم وبدأت الحدقة في الاتساع ليرى الجميع دائرة العين بوضوح، أُصيب جسدي بالإعياء الشديد فلم أعُد قادرًا على السيطرة عليه وكأنني تحت تأثير المُخدر، أصبح عقلي مشتتًا جدًّا ولديه القدرة على تخيل أي شيء غريب حتى لو كان غير اعتيادي.

ازداد الأمر تعقيدًا عندما أصبحت لديَّ المقدرة على سماع الأصوات الخافتة بوضوح، كصوت الرياح تتحرك من حولي، أرى أشياء لا يستطيع غيري رؤيتها. بدأت الهلاوس في مهاجمتي بشراسة كالإحساس بوجود حرارة في ظهري متوقعًا وجود أحد الأشخاص

خلفي وعندما ألقي نظرة لا أجد شيئًا، أيضًا الشعور ببعض محتويات الغرفة تتحرك من أماكنها؛ لكن عندما أُطِيل النظر يَثْبت كل شيء في مكانه.. لكنني رغم كل هذا كنت حريصًا على التماسُك خشية الوقوع في نوم عميق فأستفيق على فاجعة أخرى حسب قول تلك الفتاة الموجودة عند الشيخ سلامة والتي تدعى سامية.

هذه أيضًا هي آخر رشفة من فنجان القهوة السادس والعشرين أو السابع والعشرين، فلم أعد أتذكر العدد بالتحديد.

أُصِبت بدوار شديد قمت بتفسيره بأنه نتيجة قلة النوم، قلة الطعام، شُرب المُكَيفات كالسجائر والقهوة بشراهة، وقد كان الأمر منطقيًّا لإحداث بعض التقلصات الشديدة في بطني، فحتمًا أُصِبت بقرحة في المعدة لنفس الأسباب التي جعلتني أشعر بالدوار.

ازداد الأمر تعقيدًا عندما غدوت غير قادرٍ على الرؤية أمامي بوضوح، حيث الشعور بوجود ضباب أمام عيني، نبض القلب يقل تدريجيًّا وحتمًا سيتعرض جسدي للتعرق الشديد.

رجعت بظهري إلى الخلف لأستند على الكرسي رافعًا رأسي لأعلى؛ لكن جاءت المحاولات دون جدوى، يبدو أنني أسقط في غيبوبة من جديد.

وبالفعل لم تمر إلا ثوانٍ معدودة حتى هوينا على الأرض أنا وكرسِيِّي خالدين إلى نوم عميق.

* * *

12 نوفمبر 1945 م

حسين يتحدث:

– حدث ما كنت أخشاه مجددًا.. حلم جديد ولكن بطتلهُ هذه المرة هي أمي المسكينة.

رأيت أنني أتسلل إلى غرفتها ليلًا في حذر شديد لأجدها مُستلقية تمامًا على سريرها نائمة على ظهرها والابتسامة لا تفارق وجهها، فإذا بيدي اللعينة تكمش رقبتها لتخنقها وتلفظ أنفاسها الأخيرة، بينما كنت أنظر إليها ضاحكًا ضحكات تشفي غليل القلب.

لم أفهم سبب سعادتي الشديدة وأنا أقبض روح أمي بيدي!

استيقظت لأجد نفسي مُلْقًى على ظهري والكرسي الذي كنت أجلس عليه بجانبي؛ لكنه لم يقع!

ثم رأيت القط الأسود يقف جانب الكرسي وقريبًا مني جدًّا كأنه ينتظرني لأنهض من مكاني وأذهب تجاهه، في هذه اللحظات تذكرت

حديث سامية «بس لو هتقدر على وجع الفراق يبقى تنام وتصحى تدَوَّر على الأَثَر وانت وحظك بقى يا تكشف السر وتقفل الموضوع للأبد، يا تفتح على نفسك أبواب جهنم».

قررت سماع كلام هذه الفتاة ثانية وهممت واقفًا مقتربًا من القط فإذا به يتحرك أمامي ببطء شديد كأنه يُوصِل رسالة مفادها بأن أذهب خلفه، فأطعته.

خرج من باب غرفتي الذي كان مفتوحًا كعادته لكن عندما جاء دوري للخروج وجدته مغلقًا أيضًا كالعادة!

فتحت الباب سريعًا لأجد القط في انتظاري ليخرج بعد ذلك من الباب الخارجي ومنه للطريق العام، كأننا في جولة سياحية ليلية في أحد أرياف أوروبا، ثم يستقر به الحال عند أحد المنازل المهجورة ليدخل من فتحة صغيرة كانت في الباب؛ لكن بطبيعة الحال لن تسعني للدخول فتسلقت الباب لأستطيع متابعة السير خلفه سريعًا.

كان المنزل كبيرًا ويشبه في نظامه منزلنا إلى حد كبير، توجه بعد ذلك إلى «**البدروم**» قاطعًا الطُرقة التي تؤدي إليه ودخل من الباب المفتوح قليلًا. دفعت الباب بيدي لأستطيع الدخول ثم دخلت لأجد

سلالم تؤدي إلى الأسفل. نزلت سبع درجات في الاتجاه المقابل للباب ثم تبعتها بأربع في اتجاه أفقي إذا ما افترضنا أن اتجاه السلالم الأولى في الاتجاه الرأسي، بحساب بسيط أستطيع حساب المسافة بين أرضية البدروم وأرضية المنزل ليكون الناتج مترًا وخمسة وستين سنتيمترًا، لذلك لجأت إلى أن أجثو على ركبتي لأستطيع إكمال السير؛ لكن المكان كان مظلمًا جدًّا بالأسفل ولا أستطيع رؤية أي شيء، تلك هي المرة الأولى التي حمدت فيها الله على تدخيني للسجائر فقد أخرجت من جيبي عود ثقاب بصعوبة شديدة نظرًا لضيق المكان وأشعلته لأتمكن من الرؤية، لأجد حفرة في منتصف البدروم تقريبًا كان قد ألقى القط نفسه فيها، اقتربت منها فوجدتها عميقة نسبيًّا لكن يبدو أنني لست الشخص الأول الذي يأتي إلى هنا! فقد وُضِع سلم مصنوع من حبلين أحدهما على اليمين والآخر على اليسار وامتلأت المسافة بينهما بقطع من الخشب الدائري الصغيرة، والمسافة بين الواحدة والأخرى تقريبًا خمسون سنتيمترًا.

كنت طوال هذه الفترة عندما يوشك عود الثقاب على الانتهاء أُلقيه على الأرض وأشعل آخر بدلًا منه.. وبينما كنت أتأهب للنزول

رأيت سِراجًا في أحد أركان الغرفة فذهبت إليه والتقطته ثم أشعلته ونزلت إلى الحفرة.

أنا لست جريئًا الجرأة الكافية لآتي إلى هذا المكان بمفردي في هذا التوقيت؛ لكن عندما يتعلق الأمر بعائلتي فبالتأكيد سأبذل كل ما في وسعي لإنقاذهم من هذا المصير المجهول.

وصلت إلى الأسفل لأجد جرة فخار كبيرة نُقِشت عليها رموز غريبة أعتقد بأنها لغة قديمة؛ فهي تشبه إلى حد كبير اللغة الهيروغليفية لغة المصريين القدماء، لكن سرعان ما تأكدت من وجودي في مقبرة فرعونية قديمة عندما وجدت قاعدة تابوت لأحد الملوك القدماء قد تم فتحه وسُرِقَت محتوياته.

أخذني هول الموقف وهذه التفاصيل الفرعونية الجميلة المرسومة على الحوائط في كل أرجاء الغرفة؛ لكنني تذكرت القط فنظرت لأجده يقف بجوار جرة صغيرة ثم دخل بها، أسرعت تجاه الجرة لأجدها نسخة طبق الأصل من تلك التي قد كُسِرت في غرفتي من قبل مرتين.

أمسكت الجرة بيدي لكنني لم أجد القط! أين ذهب؟

العديد من الأمور خطرت في بالي حينها لكن لا وقت للانتظار، حملت الجرة الفخارية وأسندتها على كوع ذراعي وضممتها لصدري وأمسكت السراج بإحدى أصابع يدي، ومن ثم صعدت على السلم الحبلي ومنه لأرضية البدروم، ثم صعدت إحدى عشرة درجة ومنها إلى خارج المنزل.

توجهت مسرعًا للمعدية لكنني لم أجد ذلك المركب الذي أقلَّني للبر الثاني من قبل، وكيف أجده ونحن على مشارف استقبال أذان الفجر؟

نظرت بعيني بعيدًا تجاه النيل لأجد أحد الصيادين يسير بمركبه الصغير ويُلْقِي الغزل في مياهه لاصطياد السمك..

في بداية الأمر لم يكن صاحب المركب وجهه واضحًا حتى اقترب مني فإذا به عم ربيع الصياد، قلت بصوت مرتفع:

حسين: عم ربيع.. يا عم ربيع.

ربيع: مين؟ دكتور حسين؟ إيه اللي جايبك هنا الساعة دي؟

حسين: ممكن تودِّيني البر التاني؟

ربيع: البر التاني دلوقتي؟ لازم دلوقتي حالًا يعني؟

حسين: آه ماعلش لازم أروح دلوقتي ضروري عندي مشوار مهم هناك.

ربيع: ما دام مشوار مهم يبقى تعالى أوديك يا غالي يا ابن الغالي.

حسين: متشكر جدًّا يا عم ربيع، ما اتحرمش منك ولا من ذوقك يا غالي.

ركبت المركب ولكن هذه المرة كان مركبًا صغيرًا لا يحتاج لحبل؛ بل يحتاج فقط لشخص يمكنه التجديف فيسير المركب، وصلنا إلى منتصف الطريق تقريبًا مُحترِمًا موقف عم ربيع من الصمت وعدم سؤاله عن سبب ذهابي في هذا التوقيت فقلت في عقلي: «أخيرًا فيه واحد في البلد دي ما بيحشرش مناخيره في اللي مالوش فيه!».

لكن سرعان ما تفتتت هذه الأفكار مرة أخرى عندما سمعته يقول لي:

ربيع: إيه البتاعة اللي انت شايلها في إيدك دي يا دكتور حسين؟

حسين: هاه! دي آاااا، دي دي جرة فيها حتتين جبنة قديمة هاوديها لواحد صاحبي هناك في البر التاني وهارجع على طول.

ربيع: جبنة قديمة والجرة مليانة تراب! يمكن.

بس هتودي له الجبنة في الوقت المتأخر دا ليه؟ مراته بتتوحم؟ هههههه..

فضلت عدم الرد على هذا السؤال السخيف.

كنا قد وصلنا إلى نهاية الطريق وأثناء نزولي سمعت عم ربيع يقول لي:

ربيع: لو مش هتتأخر في مشوارك أستناك هنا.

حسين: مش هاتأخر لا مش هاتأخر.. بصراحة مش عارف.

ربيع: عمومًا أنا قاعد مكاني مستنيك نص ساعة لو ما جيتش هامشي، حاول ما تتأخرش علشان لو رجعت وأنا كنت مشيت مش هتلاقي حد يعديك لعندنا تاني في الوقت دا.

حسين متوترًا: هاه! حاضر حاضر، لا مش هاتأخر لا.

قمت بتكرار ما فعلته من قبل حيث الدرجات الكثيرة والأشجار العالية والهواء النقي، سِرْت في طريقي مستقيمًا حتى وصلت للميدان الواسع ثم إلى منزل الشيخ سلامة.

من المؤكد أن هذا التوقيت يجعلني أول زوار الشيخ سلامة لكنني صُعِقْت عندما وجدت ما يزيد عن الخمسين فردًا كانوا قد افترشوا

الأرض منذ أول الليل ليكونوا من أوائل الزائرين صباح اليوم التالي عندما يفتح الشيخ أبوابه.

ماذا سأفعل الآن؟ الوقت متأخرًا جدًّا، هل سأستطيع رؤية الشيخ الآن؟

نظرت تجاه من افترشوا الأرض لكن الجميع في سُبات عميق فيما عدا شاب في سن العشرين كان جالسًا في وضع القرفصاء ملتفًّا بغطاء ثقيل حول جسده ليقيه من البرد، فوصلت إليه وسألته:

حسين: إذا سمحت يا محترم، هو الشيخ سلامة بيفتح إمتى؟

الشاب: والله مش متأكد يا أستاذ بس الناس بتقول إنه بيبدأ شغل الساعة تسعة الصبح.

أصابني التوتر الشديد حينما قال لي هذا الشاب الذي يظهر من لهجته الغريبة أنه من سكان المدن وقلت في نفسي «**تسعة الصبح! دا لسَّا بدري قوي وأنا لازم أشوفه دلوقتي، لازم**».

ذهبت تجاه باب الشيخ وطرقته بلطف نسبيًّا؛ لكن لا أحد يجيب!

أعدت الطرق من جديد ولكن هذه المرة بقوة أكبر من التي كانت قبلها فكانت نفس النتيجة الأولى.

لن أنتظر حتى الصباح لذلك بدأت في النداء عليه بصوت مرتفع: «شيخ سلامة! يا شيييخ سلامة، سايق عليك النبي تفتح الباب أنا محتاجك ضروري»

رد الشيخ سلامة هذه المرة بصوت خافت من خلف الباب قائلًا:

سلامة: ما باشتغلش دلوقتي يا ابني، روح وتعالى بُكرة الصبح.

حسين: يا شيخ سلامة أنا دكتور حسين اللي كنت عندك من أربع أيام.

سلامة: طيب يا ابني ما هو أنا قُلت لك طلبك مش عندي، جاي لي تاني لييييه؟!

حسين: فيه حاجة مهمة قوي حصلت وما فيش حد غيرك هيقدر يساعدني، افتح بقى سايق عليك النبي.

فتح الشيخ سلامة الباب ببطء شديد ثم قال: «ادخل بسرعة قبل ما حد يشوفك والناس تتلم علينا».

دخلت سريعًا وما كاد الشيخ يغلق الباب خلفي حتى وجَدَ ذلك الشاب الذي كنت قد تحدثت معه من قبل يدفع الباب تجاهنا مرة أخرى طالبًا من الشيخ إدخاله هو الآخر، رد عليه الشيخ سلامة قائلًا: «ارجع يا ابني مكانك أنا ما باشتغلش غير الساعة تسعة».

فبادله الشاب الحديث لكن بأسلوب به الكثير من الحدة:

الشاب: اشمعنى دا هيدخل دلوقتي يعني يا شيخ؟ أنا كمان هادخل دلوقتي ولا دي كمان فيها خيار وفقوس؟

سلامة: ارجع اقعد مكانك بدل ما اؤذيك، وإياك تتكلم مع حد أكبر منك بالطريقة دي تاني.

وبينما كان الشاب يستعد للرد على الشيخ ولكن هذه المرة بحدة أكبر بكثير من التي كانت قبلها؛ رأيت شيئًا لم ولن أرى مثله في حياتي، حيث إنني وجدت شفتي هذا الشاب تتحركان كأنه يتحدث لكن لا خروج لصوت من فمه، كأن الأحبال الصوتية تقطعت حبلًا تلو الآخر، لم تقف درجة إبهاري عند هذا الحد، فقد رأيته يعود إلى الخلف حتى وصل إلى مكان جلوسه سلفًا كما لو كان مقيدًا بأغلال وتحمله إحدى الأرواح الخفية.

أغلقنا الباب وطلب مني الدخول إلى الغرفة فدخلنا، جلس على كرسيه وجلست في مكاني السابق أيضًا ثم تبادلنا الحديث.

سلامة: اؤمرني يا دكتور! أنا مش قُلت لك قبل كدا طلبك مش عندي؟

حسين: يا شيخ سلامة اديني فرصة أحكي لك، بس بالله عليك توعدني إنك تساعدني لو تعرف.

سلامة: أوعدك.

حسين: لما خرجت من عندك قابلت سامية على الباب وطلبت مني إني ما انامش ولو نمت يبقى لازم أتتبع الأثر لو أنا عاوز أرتاح من اللي أنا فيه. قعدت 3 أيام ما دُقتش طعم النوم فعلًا زي ما هي قالت لي. بعد كدا ما قدرتش أقاوم ونمت غصب عني بعد ما ضغطي وطي، صحيت من النوم لقيت نفس القط الإسود اللي حكيت لك عنه قبل كدا واقف كأنه مستنيني، مشيت وراه لحد ما وصلنا لبيت معين وبعد كدا دخل الجرة دي وفص ملح وداب.. اختفى.

سلامة: انت متأكد إنك شُفته بيدخل الجرة دي وما طلعش منها تاني؟

حسين: أنا متأكد من كل كلمة باقولها زي ما أنا متأكد إنك قدام عينيَّ دلوقتي.

مَدَّ إليَّ يده ليأخذ الجرة ووضعها على المنضدة ثم بدأ في قول بعض الكلمات الغريبة التي لم أفهمها وكأنها كانت طلاسم، استمر بالتفوه

بهذه الكلمات الغريبة لمدة دقيقتين أو ثلاث ثم وضع يده على الجرة وإذ بالمفاجأة!

بمجرد أن لمس الشيخ الجرة ظهر وجهه في صورة غريبة!

بدأ في الاحمرار تدريجيًّا حتى أصبح اللون مائلًا للون البنفسجي، ثم سمعت أصواتًا غريبة، ما مصدرها..؟ الجرة!

كان كصوت رجل مدخن تجاوز عمره السبعين، امتلأ صدره بالبلغم الذي تراكم لدرجة أنه بدأ يؤثر على عمل الأحبال الصوتية فأصبح الصوت الصادر منه بشعًا.

كان الصوت الصادر من الجرة قويًّا جدًّا لدرجة تكفي لاهتزازها، أما اللغة فلم تكن أيًّا من اللغتين اللتين أعرفهما «الإنجليزية والفرنسية».

وما هي إلا ثوانٍ معدودة حتى توقف الصوت الصادر من الجرة. كان الخوف قد تمكن مني في هذه اللحظة نتيجة ذهولي لما يحدث أمامي.

وما إن توقف الصوت توقعت بأن الشيخ سلامة سيعود لوضعه الطبيعي؛ لكنني بدأت سماع صوت الشيخ سلامة يصدر من داخله لكن فمه مغلق وشفتيه لا تتحركان!

يبدو أن الأمور ستكون أكثر صعوبة في الفترة القادمة أكثر من التي قبلها!

انقطع الصوت الصادر من جسد الشيخ سلامة ليبدأ الصوت من الجرة في الظهور مجددًا وكأنه حوار يدور بين أشخاص، لا أعرف فيما هما يتحدثان لكنني أعلم بالتأكيد أنهما يتحدثان عني.

بدأت حدة الأصوات تزداد وبعدما كان الصوت ينقطع من طرف ليتحدث الطرف الثاني، تشابكت الأمور الآن، ويبدو أنهما دخلا مرحلة الشجار. استمر هذا الحوار لمدة تزيد عن العشر دقائق ثم بدأ الصوت الصادر من جسد الشيخ سلامة يهدأ قليلًا جدًّا حتى اختفى.. لكن المفاجأة!

اختفى الشيخ سلامة كما اختفى القط من قبل واختفت الجرة الفخارية معه.

الفصل الثامن

20 أبريل 1968م

أمين يتحدث:

– الحياة في الريف مختلفة تمام الاختلاف عن المدينة، فرغم افتقاره لمعظم الخدمات الصحية والحكومية وبُعده عن مناطق مراكز القادة؛ إلا أن المعيشة هنا بالنسبة لي إلى الآن أفضل بكثير من المدينة، حيث أهله الذين ينعمون ليلًا بنوم هادئ فيستيقظون على روائح الفُل والياسمين المنتشرة في أنحاء الأرض، وصوت صياح الديوك وعقيدتهم بأن الدعوة مستجابة في هذا التوقيت.

هُنا حيث الروابط الاجتماعية القوية التي تشاركك أفراحك وأحزانك. هُنا حيث التمسك بالعادات والتقاليد والشعور الملموس للوِّد والمحبة والتكاتُف مع من حولك. هُنا حيث الحياة الأكثر صحة نتيجة تناول الخضراوات والفاكهة الطازجة والألبان والأجبان والبيض.

حقًّا تروق لي الحياة الريفية للأسباب التي أوضحتها قبل قليل؛ فهناك مثل يقول: «**الدنيا من غير ناس.. ما تنداس**».

أي إنني لم أتعرف على أحد هنا، منذ مجيئي وأنا لم أتحرك من المنزل ولم أتعرف إلا على وردة وعم سالم.

عم سالم! منذ أن طلبت منه الجلوس بجوار زوجته المريضة وهو لم يأتِ.. يبدو أن الأمور ليست على ما يرام، سأنتهز الفرصة وسأخرج لأداء صلاة المغرب في المسجد المجاور ثم المرور عليه في منزله.

كانت الشمس قد بدأت في المغيب تدريجيًّا معلنة اقتراب موعد صلاة المغرب، ارتديت ملابسي وخرجت من منزلي الجديد لأقف أمام الحديقة، لأتأمل في حديقتي التي بدأت أزهارها في الظهور. يبدو أن مجهود وردة وعم سالم بات واضحًا أمام عيني.

وبينما كنت أتجول في شوارع القرية وأنا في طريقي إلى المسجد متأملًا الطبيعة الخضراء الجميلة، متشبعًا من الهواء النقي؛ رأيت الجانب السلبي في القرى، حيث البيوت الريفية البسيطة والفقر المدقع الذي بدا لي من خلال ملابس الصغار وهم يلعبون في الشوارع بكرة أُعِدَّت من القماش.

رأيت رب البيت الذي عاد إلى بيته توًّا من عمله حاملًا في يده كيسًا ورقيًّا، مُسْتَقْبَلًا من صغاره في سعادة عارمة كاستقبال الأبطال؛ فقد لبَّى لهم احتياجاتهم.

أيضًا تلك السيدة التي تحمل إناءً فخاريًّا كانت قد ذهبت به بعيدًا لملئه بالماء؛ وذلك لاستخدامه في الطهي والاستحمام وخلافه.

وصلت المسجد والأذان لم يُرْفَع بعد، فكنت حريصًا على صلاة ركعتي تحية المسجد كما عودني أبي رحمه الله في صغري، ثم أذن المؤذن للصلاة. بدأ الناس في التوافد على المسجد، ومَن يراني ينظر لي وكأنني شخصية مشهورة. تعجبت كثيرًا من هذه النظرات الغير مفهومة لكنني أديت الصلاة ثم تبعتها بركعتي السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

كان يصلي بجانبي شابٌّ عشرينيٌّ، وما إن انتهيت من صلاتي حتى مددت يدي لمصافحته، فما كان منه إلا أن مدَّ يده إليَّ سريعًا وصَحِبها بابتسامة بلهاء. تعجبت من ابتسامته كثيرًا لكنها أعجبتني، لذلك:

أمين: أنا أستاذ أمين زين العابدين.

الشاب: أهلًا.. أهلًا وسهلًا.. أنا مراد، مراد الصياد.

أمين: فرصة سعيدة.

الشاب: أنا أسعد يا أستاذ أمين جدًّا.

أمين: ألا قل لي يا مراد.. ليه الناس بتبص لي باستغراب كدا؟!

مراد: أنا هاقول لك.. البلد هنا صغيرة وكلنا عارفين بعضنا، علشان كدا أي حد غريب بيدخل علينا أو يندس وسطينا بنعرفه، ودا سر إنهم بيبصوا لك باستغراب؛ لكن ليه بيبصوا لك بصة حلوة؟ فدا علشان طريقة لبسك غير طريقة لبسهم، الناس دي ما تعرفش غير لبس الجلاليب؛ لكن القميص والبنطلون دا مش بيشوفوه إلا قليل قوي.

أمين: أنا ملاحظ إنك بتقول لبسهم، بيشوفوه.. انت مش حاسب نفسك منهم ولا إيه؟! ما انت كمان لابس جلابية أهو .

مراد: لا أنا منهم لكن ما بالبسش لبسهم، أنا بالبس قميص وبنطلون عادي زيي زيك، بس باحب أصلي بالجلاليب، طب دا أنا حتى أبويا كان بيحكي لي إن البلد كلها ما حدش كان بيلبس فيها قميص وبنطلون خالص غير واحد بس كان اسمه دكتور حسين.

أمين: دكتور حسين ثروت؟!

مراد: أيوة، هو انت تعرفه؟!

أمين: دكتور حسين الله يرحمه يبقى خالي.

مراد: خالك!

أمين: أيوة خالي، مستغرب ليه كدا؟!

مراد: رُبَّ صدفة خير من ألف ميعاد والله، دا أنا أبويا ما بيبطلش يجيب في سيرتك من ساعة ما رجلك طقت أرض البلد.. كل شوية أنا عاوز أشوفك زي الأستاذ أمين. * يضحك *

أمين: مين يبقى أبوك بقى؟!

مراد: شكلك ما أخدتش بالك من الاسم، مراد الصياد.. مراد سالم الصياد.

أمين: انت ابن عم سالم؟! يا محاسن الصدف! دا الدنيا فعلًا صغيرة قوي، دا أنا كنت لسَّا هاعدي عليكم في البيت أطمن على الست والدتك وكنت محتار مين هيدلني على البيت.. يلا فرصة تعرفني البيت فين ونشرب شاي ونكمل كلامنا سوا.

مراد: تحت أمرك دا البيت هينور.. يلا بينا.

ثم انطلقنا صوب المنزل.. ليبدأ سبب جديد كافٍ للاستقرار في هذه القرية.

* * *

20 أبريل 1968م

أمين يتحدث:

– وصلنا إلى منزل عم سالم أنا وصديقي الجديد مراد، يُظْهِر المنزل الحالة المادية التي كان عليها أهله، حالهم كحال معظم سكان هذه القرية، فقد كان بيتًا قديمًا يتكون من طابق واحد بُنِيَ بالطوب اللبن، وتمت تغطية سقفه بعروق من الخشب، فوقها «بالات» من القش كانت قد نُثِرَت لتغطي السقف بأكمله.

طرق مراد على الباب فسمعت صوتًا رقيقًا لفتاة أتمنى أن يكون جمالها كجمال صوتها تقول: «ميين! مين بيخبط؟!».

ليجيبها مراد على الفور: «افتحي يا كريمة أنا مراد ومعايا ضيف».

فقُمت بسؤال مراد على الفور: «مين كريمة؟!».

فأجابني بأنها تكون أخته الصغيرة.

كان وقع صدى كلمة مراد «**افتحي يا كريمة**» على أذني كلوحة فنية رسمها الرسام الشهير «**فان جوخ**» تتلخص فيها أسمى معاني الحب والوفاء في نفس الوقت، حيث آثر عم سالم إرضاء حبيبته القديمة وقام بتسمية ابنته على اسمها، لم يمثل هذا الأمر ذعرًا لي لأنني أؤمن بأن

القلوب ليست بأيدينا، تمامًا كما قال خالي حسين في مذكراته رغم مشاركة عم سالم له في حُبها.

انتظرنا على الباب قليلًا حتى فتحت كريمة الباب، يبدو أنها كانت ترتدي حجابها. فتحت الباب فإذا بها فتاة جميلة، يبدو أنها كان لها نصيبٌ من اسمها، حالها كحال من تمت تسميتها على اسمها. ابتسمت ابتسامة بسيطة كان لها أثر السحر على قلبي.. أحببت ابتسامتها كثيرًا.

كريمة: اتفضلوا، أهلًا وسهلًا.

قالت هذه الجملة ووجهها ينظر أرضًا كدلالة على الحياء. دخل مراد أولًا وما كدت ألتحق به حتى وجدت عم سالم أمامي..

سالم: يا ألف أهلًا وسهلًا بالباشا الصغير.

أمين: هههه إزيك يا عم سالم، والله وليك واحشة يا راجل.. فينك وفين أراضيك؟

سالم: ما تشوفش وحش يا غالي يا ابن الغاليين، والله الجماعة كانوا تعبانين شوية اليومين اللي فاتوا، ماعلش بقى ماعرفتش أطل عليك أشوفك لو عاوز حاجة.

أمين: ولا يهمك يا عم سالم، المهم إن الأمور تكون بخير والست بتاعتك ربنا يتم شفاها على خير ويقوِّمها بالسلامة إن شاء الله.

سالم: الحمد لله، كنا فين وبقينا فين.

ثم رفع صوته عاليًا قائلًا: «الشاي بسرعة يا بت يا كريمة للأستاذ أمين».

فقلت له: «حيث كدا بقى تعالى نشرب الشاي على المصطبة برا وندردش شوية».

وافقني عم سالم في رأيي وذهبنا للخارج وجلسنا.

أمين ضاحكًا: بس حلو اسم كريمة دا.

سالم بعد تنهيدة: بيروح الأصل وتفضل الذكريات تنهش في لحمنا الحي يا ابني، ما كانش ليَّ نصيب في كريمة الزوجة، بس ربنا عوضني بكريمة البنت والأخت، وسبحان المصور اللي أبدع خلقها زي اللي قبلها.

*** تخرج علينا كريمة لتقديم الشاي ***

أمين: شكرًا يا كريمة تسلم إيدك.

كريمة: ألف هنا وشفا على قلبك يا أستاذ أمين. أبويا الحاج ما بيبطلش كلام عنك ليل نهار والله.

سالم: طيب يلا يا بنت الكلب حطي الصينية اللي في إيدك واجري اقعدي جنب امك يا لمضة. * يضحك *

ثم انصرفت كما طلب أبوها.

أمين: أنا حابب جو الريف الحقيقة يا عم سالم وبافكر أستقر هنا على طول.. إيه رأيك في الموضوع دا؟

سالم: يا ابني كل مكان وليه حلوه ومُرُّه وربك بيقسم الأرزاق، هو رب هنا ورب هناك، وكل واحد أدرى بظروفه، بس ما تآخذنيش يعني، لا انت مننا ولا عيشتك زي عيشتنا ولا بتفهم في الفلاحة.. هتقعد هنا تعمل إيه؟

أمين: كل شوية تقول لي يا أستاذ يا أستاذ، ولسَّا لحد دلوقتي ما تعرفش أنا بشتغل إيه؟ * يضحك *

سالم: أستاذ بجد؟

أمين: أيوة أنا مدرس ابتدائي.

سالم: يعني تعرف تعلم العيال القراية والكتابة؟!

أمين: آه طبعًا، باقول لك مدرس، مدرسسسس. * يضحك *

سالم: دا انت لو فتحت لك كُتَّاب تقدر تعيش وسطنا وتكسب كويس، ألا انتَ برضه ما قُلتليش لحد دلوقتي، إيه اللي فكرك ببيت العيلة بعد كل الغيبة الطويلة دي؟ مع إن الست والدتك سايبة البلد وانت صغير قد كدا! وكل ما اسألك تقول لي بعدين بعدين.. هو بعدين دا ما بيجيش عندك ولا إيه؟ * يضحك *

أمين بعد تنهيدة: أنا كنت عايش في السويس كافي خيري شري، أبويا مات من أربع سنين.

سالم: استنى بس يا أستاذ.. هو والدك رجع لكم؟!

أمين: يااااه! رجع من 7 سنين ومات بعدها بـ 3 سنين، وفي يوم كنت في الشغل في مدرسة ابتدائي عندنا كنت شغال فيها، لقيت زمايلي بيقولوا إن فيه غارات للطيران الإسرائيلي على الحي بتاعنا، جريت زي المجنون على البيت بتاعنا وأتفاجئ إن الدفاع المدني بيقابلوني بجثة أمي وأختي طالعين من تحت الأنقاض، وأكبر حتة في البيت بتاعنا بقت قد عود الكبريت، ساعتها حسيت إن الدنيا في السويس ما بقتش تنفعني وقررت إني أبعد يمكن أقدر أنسى اللي حصل، خصوصًا مع التهجير اللي حصل، خدت أجازة مفتوحة من المدرسة وجيت على هنا، وبس يا سيدي هي دي حكايتي.. عرفت ليه بقى أنا كنت باقول لك بعدين ليه؟ علشان ما كنتش حابب أفتكر أي قصة من القصص دي.

سالم: ربك بيمهل وما بيهملش، وزي ما قبضوا أرواح العُزَّل الغلابة اللي زي الست والدتك وأختك؛ هيبجي عليهم يوم ويبكوا بدل الدموع دم، الله يرحمهم جميعًا شُهدا ويبارك فيك ويجعلك خير خلف لخير سلف يا ابني.

أمين: آمين يا رب.. شُفت بقى أهو انتَ خدتني في الكلام ونسيتني كنت عاوز أسألك في إيه.

آه.. انت كنت تعرف واحد اسمه الشيخ سلامة؟!

سالم: الشيخ سلامة.. الشيخ سلامة.. لا مش واخد بالي والله.

أمين: الشيخ سلامة الدجال اللي كان قاعد في البر التاني..

سالم: آه آه، ما تقول سلامة الدجال، دا أنا سمعت إنه مات موتة صعبة قوي.. انت تعرفه منين دا؟ دا ميت وانت صغير قوي.

أمين مندهشًا: مات؟!

سالم: آه مات، بيقولوا انهم لقوه شانق نفسه في أوضته اللي كان شغال فيها، وبنفس الطريقة اللي خالك الله يرحمه مات بيها.

أمين: خالي! هو خالي مات مشنوق؟!

سالم: هو انت ما تعرفش؟! يا ابني ما تفتحش على نفسك أبواب انت مش قدها وعفا عليها الزمن خلاص، وبعدين انت فيك اللي مكفيك ما تحملش نفسك أكتر من طاقتها.

ظهرت علامات التوتر على وجه أمين من جديد لكنه كان مصممًا على توجيه الأسئلة:

أمين: طيب وجدتي؟! لقوها ميتة فعلًا بعد جدي بأيام معدودة؟!

سالم: آه، هاقول لك نفس النصيحة تاني يا ابني يمكن ما خدتش بالك منها أول مرة أو عملت نفسك مش سامعها.. ما تفتحش على نفسك أبواب انتَ مش قدها وعفا عليها الزمن خلاص.

ركز في مستقبلك وابدأ حياتك وسطنا وانسى أي حاجة فاتت واللي حصل لعيلتك وافتح الكُتَّاب.

حركت رأسي مُبْدِيًا موافقتي على حديثه واستأذنت بالانصراف وانصرفت.

* * *

12 نوفمبر 1945

حسين يتحدث:

- اختفى الشيخ سلامة!

لم أستطع استيعاب أو ترجمة ما حدث أمامي، أين ذهب الشيخ سلامة؟ ولمن هذه الأصوات التي سمعتها؟ وما هو مُجمل الحديث الذي دار بين الصوت الصادر من الجرة والشيخ سلامة؟ وبأي لغة كانا يتحدثان؟

كان هوْل الموقف الذي وقعت فيه أكبر بكثير من الشجاعة التي تكمُن في داخلي، فلم أستطع أن أمكث أكثر من ذلك في هذا المكان المُرعِب، وبدأت في الركض سريعًا للخارج.

لم أكُن أعرف وجهتي حينها وإلى أين.. حتى اختفت الرهبة وبدأت في الركض تجاه البر الثاني مرورًا بذلك الشاب الذي رأيته يبتعد عن الشيخ سلامة لا إراديًّا وتشريح جسده كما كنت أتركه.

وصلت إلى الشاطئ فوجدت عم ربيع قد ابتعد قليلًا، يبدو أن المدة التي قضيتها هنا كانت أكثر بقليل من المُهلة التي حددها لي، صِحت ناطقًا اسمه أكثر من مرة وأنا في طريقي لنزول الدَرَج لكنه لم يصغ لي أبدًا.

فجأة سمعت صوت رياح شديدة تقترب مني مصطدمة بالأشجار المحيطة بي، لتُصدر أصواتًا لا تختلف في رُعبها عن تلك الأصوات التي كنت أسمعها قبل قليل في منزل الشيخ سلامة.

تلك الأصوات الغريبة بدأت تتزايد من حولي، ولم تقتصر على هذا فقط؛ بل بدأت في رؤية خيال من حولي كأشباح سوداء تتحرك مسرعة تجاه المجهول! وكلما وقعت عيني على واحد منهم يبدأ الآخر في الظهور فيتشتت ذهني عن الأول، فزادت قشعريرة جسدي كثيرًا.

تأكدت في هذه اللحظة بأنني محاط بالجن في هذا المكان وأن عم ربيع انصرف لا إراديًّا، وبالطبع لن يسمع صوتي. قال لي أبي سلفًا بأن الجن يحضر إذا ما ذُكِرَت سيرته أو تحدثت عنه مع أحد.

بعد التفكير المتراكم والكثير الموجود في عقلي رأيت شخصًا يبدو أنه آتٍ من بعيد بمركب صيد تشبه إلى حد كبير ذلك المركب الذي كنت أركبه مع عم ربيع، فأسرعت بالنداء عليه: «يا حاج يا حاج».

سمعني وجاء تجاهي لكنه في أول الأمر كان متعجبًا من هيئتي ولا أعرف السبب حتى هذه اللحظة!

أسرعت بالركوب ثم قلت له: «لو سمحت ممكن تودّيني البر التاني؟».

فرد قائلًا: «إيه لازمتها لو سمحت بقى ما انت ركبت خلاص!».

ثم بدأ في التحرك فعليًّا تجاه وجهتي، فآثرت عدم الرد على الجملة التي تفوه بها، وأثناء الطريق رأيته ما زال متعجبًا من هيئتي..

حسين: ما لك يا حاج بتبص لي كدا ليه؟ أنا فيا حاجة مش عاجباك؟!

المراكبي: انت جاي منين يا ابني في الوقت دا؟!

حسين: آاا كنت راجع من القاهرة عن طريق البر التاني، وكان فيه مراكبي المفروض مستنيني بس الظاهر إني اتأخرت عليه فمشي.

المراكبي: انتَ لسَّا مصمم تكدب على نفسك وعلى الناس برضه يا دكتور حسين؟

حسين: أكدب؟ دكتور حسين! انتَ تعرف اسمي منين وأنا أول مرة أشوفك؟

المراكبي: وأنا كمان أول مرة أشوفك، بس همَّ اللي بلغوني باسمك!

حسين مندهشًا: همَّ مين دول اللي قالوا لك اسمي؟!

المراكبي: اللي كانوا حواليك في البر التاني.

وما إن قال المراكبي هذه الكلمات حتى اختفى اختفاء مماثلًا تمامًا لاختفاء الشيخ سلامة قبل قليل.

ماذا يحدث؟! لقد أصبحت حياتي ممتلئة بالرعب كما لو كنت قابعًا في واقع افتراضي، أرسم لأقداري أسوأ ما يمكن حدوثه.

جلست مكان هذا الشبح وبدأت بالتجديف ويداي مضطربتان حتى وصلت إلى وجهتي التي كنت أقصدها بسلام بعد كل هذا الذي حدث. أسرعت تجاه المنزل شاعرًا بثقل جسدي، كما لو أن هموم الدنيا جميعها اجتمعت على كاهله، كما لو أنني استبدلت قدمي بقدم دجاجة تسير في بحر الرمال العظيم.

وما إن وصلت إلى منزلي حتى سمعت أصوات البكاء والنحيب تصدر منه، واجتمع الجيران على الصوت قبل مجيئي مسببين زحامًا

كانت نهايته غرفة أمي التي وجدتها جثة هامدة بنفس الصورة التي رأيتها فيها في هذا الحلم اللعين هذه الليلة.. مستلقية على سريرها نائمة على ظهرها مع تلك الابتسامة الدائمة!

* * *

16 نوفمبر 1945 م

حسين يتحدث:

- تسربت الأحزان إلى منزلنا في فتراتنا الأخيرة، وجاءت الأقدار السيئة تواليًا فعصفت باستقرارنا وأذاقتنا آلام الفقد، والتي بدورها كانت تمهيدًا لكارثة أكبر بكثير، وكعادتي في الفترة الأخيرة تنتهي مراسم العزاء فأدخل لغرفتي ماكثًا بها حتى مجيء النوم لرؤية كابوس جديد، ومُسْتَيْقِظًا على كارثة أكبر..

الأمر هذه المرة كان مختلفًا فبينما كنت في غرفتي ويكاد عقلي يجن لما يحدث لي، حتى سمعت صوت طرق الباب الخارجي للمنزل، في الحقيقة كنت قلقًا لأن يكون هذا الصوت لعبة جديدة من ألاعيبهم معي، لذلك قررت السير على نهج المثل الشعبي: «ودن من طين وودن من عجين».

لعلها تهيؤات نتيجة ما حدث خلال الفترة السابقة.

عاد صوت الطرق للظهور من جديد، فقُلت في نفسي «لا مجال للفرار هذه المرة» وكأنه يؤكد لك أنها حقيقة؛ لكن في نفس اللحظة سمعت صوت فتح الباب. يبدو أن أحد إخوتي قد همَّ بالخروج ليرى من بالخارج.

ثم بعد قليل سمعت صوت أقدام تقترب من غرفتي فَيُطْرَق الباب لمرة واحدة ولا ينتظر فيفتحه ويدخل مباشرة، لأجدها سعاد زوجة أخي تخبرني بوجود شخص ما بالخارج يريد مقابلتي. سألتها إن كانت تعرف مَن هو فأجابت: «مش عارفة، هو سأل عليك قُلت له إنك نايم فقال لي قولي له إني عاوزه ضروري، فسألته على اسمه فما ردش عليَّ وقال لي اندهي له بس وهو هيعرف لما يشوفني».

أخبرتها بأنني سأغير ملابسي وسأخرج له، ثم طلبت منها الذهاب لفراشها لتخلد إلى النوم من جديد.

ارتديت عباءة كانت لأبي ثم خرجت سريعًا لأرى من يريدني في هذا التوقيت، لأجده الشيخ سلامة!

طلب مني الجلوس بجانبه على أريكة في الحديقة حتى لا يسمع حديثنا أحد، لا إراديًّا أغلقت الباب وجلست جانبه وبدأ في حديثه مباشرة..

سلامة: اللي شوفته لا يتحكي ولا يتسمع ولا يخطر على بال بشر، قابلت مواقف كتير أشكال وألوان لكن بالمنظر دا فأنا ما شوفتش قبل كدا نهائي.

حسين: إيه اللي حصل؟ وانتَ اختفيت فين؟ ورجعت إزاي؟!

سلامة: لما انتَ جيت لي أول مرة قُلت لك إن الموضوع كبير وإن طلبك مش عندي. في تاني مرة لما جبت الجرة معاك كنت عارف حدودي كويس.. إيه هي حدودي؟

يعني أسخر جن صغير يعمل لنا أي حاجه عاوزينها في الخير؛ لكن ملوك الجن دول حاجة تانية وليهم شيوخ تانية، الشيوخ دي لازم لما تيجي تحضَّر الملوك دي بيقدمولهم زي قرابين.. خدمة قصاد خدمة يعني ودا اللي حصل مع أبوك.

حسين: أبويا!

سلامة: آه أبوك، مش كان شغال في الآثار برضه؟

حسين: آه.. بس انتَ عرفت موضوع الآثار دا منين؟!

سلامة: ما كفاية بقى أسئلة خايبة انتَ لسَّا ما زهقتش! ركز في المشكلة الكبيرة اللي عندك عشان تحاول تحلها.

حسين: أيوة.. إيه هي المشكلة؟!

سلامة: أبوك كان بيدوَّر على آثار في البيت اللي القط خدك من إيدك ووداك عنده، وصلوا لباب المقبرة خلاص ولازم يفتحوها بتعاويذ بيستخدموا فيها السحر الأسود. الشيخ اللي كان شغال مع أبوك كان جاحد ومتوسع في شغله مع ملوك العالم السفلي، لدرجة إنه كان بيخلي الأُمَرا ينفذوا له طلباته، بس لازم الشيخ دا يقدم قرابين زي ما قُلت لك.. القُربان اللي طلبه ملك الجن ساعتها إن الشيخ يتوضا باللبن في الحمام، وبعدين ينزل قدام المقبرة يقرا القرآن بحروف متبدلة، وبعدين يتفك دم بنت بِكْر على باب المقبرة علشان تتفتح. الجن ما حددش مين البنت اللي عاوزها ولا مواصفاتها، فراح أبوك عمل اتفاق مع واحد على قد حاله إنه يسلمه بنته اللي كان عندها 16 سنة ساعتها، قصاد إنه يراضيه بِشوال فلوس.. أبوها وافق وأبوك خد البنت من إيديها في نفس اليوم ونزل بيها لباب المقبرة وكان معاهم الشيخ.. الشيخ حذر أبوك إنه لما ينزل ممنوع يقرا قرآن ولا حتى في سره، مهما شاف تحت أو حس بأي حاجة غريبة بتحصل.

الشيخ بدأ يقرا الطلاسم بتاعته مع كلمات القرآن المقلوبة، وبدأ ملوك الجن يحضروا، ساعتها طلب الشيخ دم البِكْر، وأول ما حصل كبير ملوك الجن حضر وانفتحت المقبرة، وخلاص ملوك الجن كانوا

هياخدوا بعضهم ويمشوا، أبوك ما قدرش يستحمل الضغط والرعب اللي كان فيه، فبدأ يقرا آية الكرسي في سره لما الشيخ كان بيكمل باقي الطلاسم.. بدأ الملوك يتعصبوا واعتبروها إهانة ليهم إن الشيخ يجيبهم وحد يقرأ قرآن وهمَّ موجودين، وما كانوش يقدروا يأذوا أبوك لأنه حصن نفسه فأذوا الشيخ، بدأ الشيخ يتخنق ويقل الأكسجين في جسمه لحد لما اترمى على الأرض، أبوك بسرعة زعق للناس اللي فوق علشان يرموا له حبل وربط الشيخ فيه ورفعوه لفوق.

لما الشيخ فاق من اللي كان فيه حذر أبوك من إنه يقرب ناحية المقبرة دي أو ياخد منها حاجة وإلا ملوك الجن هتأذي الشيخ

أبوك ما سمعش الكلام واتهمه بالجنون وازاي عاوزه بعد ما حفر ووصل للمقبرة وفتحها ما يطلعش اللي فيها ويسمع كلامه العبيط دا!

الشيخ حذر أبوك ساعتها إنه لو قرب من باب المقبرة هيتحالف مع ملوك الجن ضده وهيقدم نفسه قربان ليهم عشان ينتقموا من أبوك؛ لكن طبعًا أبوك ما سمعش غير كلام نفسه ونزل نهب المقبرة، لكن ساعتها حصل اللي ما حدش من كل الأطراف يتوقعه، بنت ملك الجن الأكبر عارضت أبوها في الانتقام من أبوك؛ لأنها كانت اتعلقت بيه وسألت قرينه عليه وبدأت تحبه وهربت وسابتهم وما رضيتش

ترجع تاني، فقرروا إنهم يأجلوا حسابهم مع أبوك لحد ما بنتهم ترجع لهم من تاني ويشوفوا حل للموضوع دا.

بدأت البنت تعرض امتيازات على أبوك علشان يوافق يتجوزها، زي إنه لو ماشي في الشارع وبص تحت رجله يقدر يشوف اللي تحت الأرض، كمان كان بيقدر يبص في إيده الشمال ويركز في أي اسم يخطر على باله ويقدر يشوفه بيعمل إيه دلوقتي حالًا أو عمل إيه قبل كدا، بعد كدا عرضت عليه الجواز لكنه رفض وكانت بتظهر له في صورة البنت البِكر اللي كانت معاهم وهمَّ بيفتحوا المقبرة.

لما أبوك رفضها صعبت عليها نفسها إنها إزاي تسيب أهلها وتهرب منهم وتتحداهم علشانه وهو في الآخر ما يرضاش يتجوزها بعد كل اللي قدمتهوله، فبدأت تظهر في صورة القط الأسود اللي كنت بتشوفه دايمًا في البيت عندكم، بس أسلوب انتقامها كان مختلف شوية.. لما قررت تنتقم من أبوك استخدمتك انتَ.

الأول بدأت بالبنت اللي انتَ بتحبها كريمة، وانتقمت منها بدري بدري علشان ما تكررش نفس اللي أبوك عمله معاها لما رفضها علشان كان بيحب أمك.

ما تستغربش كمان من اللي هتسمعه دلوقتي بس انتَ ما كنتش بتحلم، هي كانت بتسيرك وانت نايم عشان تقدر تنتقم من كل اللي هي عاوزة أرواحهم؛ لأن الجن معروف إنه شيء معنوي ما يقدرش يقتل ولا يحرق، فكان وجودك أساسي علشان تسيطر على عقلك وتخليك تعمل كل الجرايم دي، لما بدأت بحبيبتك وبعدين أبوك وفالآخر أمك اللي قبضت روحها بإيدك، مش ناوية تقف عند كدا ومصممة إنها تشفي غليلها وتقضي على العيلة واحد واحد ما دام لسَّا ما وصلتش للي هي عاوزاه!

حسين: انتَ عاوزني أصدق كل الكلام الخايب اللي انتَ بتقوله دا؟ أنا اللي قتلت كريمة وأبويا وأمي؟! طيب الحرامي اللي مسكوه وقالوا إن أهله ولعوا في بيت كريمة دا إيه؟!

سلامة: الحرامي دا شخص مسكين وضحية عناد أبوك، حاله حال أي حد اتأذى أو هيتأذي نتيجة أفعاله.. بنت الملك هي اللي سَيّرِتُه وخلته يسرق ويتمسك، وبعد كدا سالم الخفير قتله ودفنه في نفس المكان اللي كنتوا بتتقابلوا فيه انتَ وكريمة.

حسين: سالم الخفير قتل الحرامي؟! يعني الحرامي ما اتسلمش للنقطة زي ما العمدة قال لي؟!

سلامة: كان رايح على النقطة فعلًا واللي راح يسلمه كان الخفير سالم، وكان بيحب كريمة فقتله عشان يشفي غليله من اللي قتل حبيبته.. يعني مش انتَ لوحدك اللي كنت بتحبها يا دكتور.

حسين: لنفترض إن كلامك صح! انتَ اختفيت فين؟!

سلامة: الشيخ اللي أبوك كان جايبه لما اتحالف مع ملوك الجن ما قدرش يتحمل اللي حصل له وقرر إنه ينتحر، فشنق نفسه في أوضته والملك فقد وسيلة الاتصال الوحيدة اللي بينه وبين بنته، ولما انتَ جيت لي بالجرة بتاعتك دي قرر إنه يستخدمني علشان يقدر يرجع بنته، والحوار اللي حصل لما كنت قاعد معايا وأنا باكلمه إني كنت رافض إني أسمع كلامهم، بس هددني وبلغني إني خلاص دخلت اللعبة ولازم أسمع كلامه أو هيكون مصيري زي الشيخ اللي كان قبلي.

حسين: طب وبنته دي هترجعها له ازاي؟!

سلامة: انتَ الوحيد اللي في إيدك إنك ترجعها له وتنهي الموضوع دا للأبد، وتنقذ روحك وأرواح كتير متعلقة في رقبتك.

حسين: أنا! طيب ازاي؟!

سلامة: ما عليك إلا الطاعة.. لازم تطيعها وتخليها تسلم لك وفي الوقت دا هتقدر تسلمها لأهلها.

حسين: أطيعها! عاوزني أتجوز جنية؟! طيب خليني معاك للآخر واعتبرني سمعت كلامك.. أقدر أوصلها ازاي واتكلم معاها ازاي؟!

سلامة: مش انتَ اللي هتقرر إنك تقرب منها، هي اللي هتقرب منك في الوقت اللي هي عاوزاه، ومش هافكرك ما عليك إلا الطاعة، لو حصل غير كدا فاللي جاي كله هيبقى ظلمات.

تركني الشيخ سلامة وغادر منزلي وهو يردد هذه العبارة:

- «اللي جاي كله هيبقى ظلمات»..

«اللي جاي كله هيبقى ظلمات»..

«اللي جاي كله هيبقى ظلمات».

الفصل التاسع

1 مايو 1968م

أمين يتحدث:

– كأن الأحداث تعاد أمامي من جديد، كل كلمة تفوه بها سالم الخفير كانت حقيقة.. غيرته على كريمة في بادئ الأمر، قتلُه للسارق عند نفس مكان تلاقي خالي مع كريمة، يبدو أن الأمور ليست على ما يُرام وتحذيره لي بأن لا أطرق بيبان الماضي من جديد كان محقًّا فيها، يبدو أيضًا أن هناك حقيقة لا يريد أهل القرية الإفصاح عنها لأحد.

على الجانب الآخر سرحت بخيالي في ذلك الملاك الصغير الذي رأيته في بيت عم سالم «كريمة». أعتقد بأنني بدأت أتعلق بها أكثر من اللازم، لم أرها سوى مرة وحيدة؛ لكنها كانت كافية لتجعل مسكنها الفؤاد مباشرة.

كنت أتذكر الحديث الدائر بيننا وتلك الابتسامة التي فتحت بها الباب عند علمها بأنني أمين الذي حكى لها أبوها عنه.

أعتقد بأنها رسخت فكرة في عقلها مما سمعته عني ونصَّبتني ملكًا على عرش قلبها، يا لسعادتها لو علمت أنني أيضًا بدأت بجعلها تتولى زمام أمور قلبي.

كان موضوع كريمة يشغل بالي كثيرًا في هذه الأثناء، ووددت أن ألتقي بها من جديد؛ لكن لم أرد اللقاء في منزلها هذه المرة، بل أريدها منفردة في مكان ليس به سوانا.

فكرت طويلًا لكن لم أجد طريقة أنسب من تلك الطريقة التي استخدمها أبوها من قبل؛ وهي مراقبة تحركاتها ومن ثم انتظار التوقيت المثالي للقاء. حتمًا سأصل معها لنتيجة مختلفة عن تلك التي وصل لها والدها من قبل، كان عم سالم يحب كريمة الأولى وهو مجرد خفير، أما هي فكانت الابنة المدللة لشيخ الخفر، هو يحبها أما هي فكان خالي قد شغفها حبًّا.

هذه المرة أعتقد بأنها ستقع في غرامي إن لم تكن قد وقعت بالفعل؛ لكنني أيضًا أحبها، لذلك انتظرتها أمام بيتها حتى وجدتها تخرج في الصباح الباكر، فذهبت خلفها لتستقر قدماها في السوق، فراقبتها من بعيد لأجدها مبتسمة وتحب الحياة، تلقي التحية على هذا العجوز وتتبادل الضحكات مع تلك، حتى انتهت مما جاءت من أجله ثم عادت لتمُر على الخياطة فانتظرت أمام الباب حتى خرجت وابتعدت عن المنزل قليلًا، ثم اقتربتُ منها من الخلف وهمست في أذنها اليُمنى قائلًا: «صباح الخير».

ارتعبت وألقت ما كان في يدها وفُتِحَ فمها مصحوبًا بصرخة عالية تعبر بها عن فزعها؛ لكن سرعان ما رأتني وتعرَّفت عليَّ وهدأ روعها سريعًا قائلة:

كريمة: أستاذ أمين! أنا اتخضيت.

أمين ضاحكًا: ما تخافيش ما تخافيش أنا مش بُعْبُعْ والله.. أنا بس كنت عاوز أتكلم معاكِ كلمتين بعيد عن البيت عندكم.

كريمة: بعيد عن البيت؟! خير فيه حاجة ولا إيه؟! أنا حصل مني حاجة زعلتك لا قدر الله؟! وعرفت إني هنا ازاي؟

أمين: لا أبدًا مافيش حاجة، أنا بس استنيتك عند البيت وبعدين مشيت وراكِ لحد السوق، وبعدها لحد الخيَّاطة، وأهه واقف معاكِ دلوقتي.

كريمة: قاطرني من البيت؟ والله ما عملت حاجة.

أمين: والله انتَ ما عملتِ حاجة، أنا باقول لك عاوز أكلمك كلمتين بعيد عن أبوكِ الحج سالم بس مش أكتر.

*** تلتفت كريمة يمينًا ويسارًا ***

أمين: فيه حاجة؟ بتبصي يمين وشمال ليه؟

كريمة: عشان احنا في أرياف وما حدش فينا غريب عن التاني فأخاف حد يشوفني واقفة معاك ويروح يقول لأبويا، دا يقطعني حتت ويرمي لحمي لكلاب السكك.

أمين: طب امشي ورايا فيه مكان أعرفه هنعرف نقف فيه براحتنا وما حدش هيشوفنا مع بعض، وأهه بالمرة نعرف نتكلم الكلمتين اللي عاوز أكلمك فيهم.

ثم انطلقنا لنفس المكان الذي كان يتلاقى فيه خالي مع كريمة الكُبرى، عند الطلمبة حسب الوصف الذي وصفه لي عم سالم.

* * *

19 نوفمبر 1945 م

حسين يتحدث:

– لا يزال كلام الشيخ سلامة يتردد في أذني مذ غادر منزلي، منذ ثلاثة أيام إلى الآن، لم يحدث لي شيء منذ ذلك الحين ولم تظهر هذه الجنِّية إلى الآن، وبينما كنت شاردًا في هذا الموضوع حتى رأت عيني تلك الجرة على المكتب مرة أخرى!

اقتربت منها بحذر وأمسكتها بيدي فلم يحدث شيء غريب، ثم مددت يدي داخلها فلم أجد شيئًا أيضًا.

تركتها مكانها وعُدت إلى سريري مرة أخرى وبدأت في تطبيق طقوس النوم التي اعتدت عليها في الفترة الأخيرة.

وما كاد رأسي يخلد إلى النوم على وسادتي حتى سمعت صوت طرق باب غرفتي.

حسين: مين بيخبط؟

سعاد: أنا سعاد يا دكتور حسين.

عدَّلت من هيأة جسدي ثم طلبت منها الدخول: ادخلي يا سعاد.

سعاد: انتَ كنت نايم؟

حسين: لا لا ما نمتش ولا حاجة، أصلًا مش جاي لي نوم، ومين ييجي له نوم في الظروف اللي بتحصل لنا دي بس؟ المهم قولي لي كنتِ عاوزة حاجة؟

سعاد: هييجي لك نوم ازاي طيب وكل اللي حصل دا بسببك؟

حسين متوترًا: بسببي! أنا؟!

ضحكت سعاد وبدأ صوتها في التغير تدريجيًّا؛ حيث فقدت نبراتها الهادئة الناعمة وانقلبت بشكل مفاجئ إلى صوت ممتلئ بالكثير من الحدة والغلظة، أدركت في ذلك التوقيت أن التي تخاطبني هي الجنِّية وأن سعاد ما هي إلا جسد صوري، لذلك قررت مواصلة الحديث

معها بعدما لملمت ما فُرِطَ من أعصابي محاولًا الثبات لمعرفة ما الذي تريده مني.

حسين: ما رديتيش عليَّ يعني!

سعاد: أرد عليك أقول لك إيه؟ انتَ شكلك هتبقى زي أبوك.. تغلط وتكون عارف الصح فين وبرضه تصمم ع الغلط.

حسين: طيب أبويا غلط واتعاقب منك ومن عيلتك، أنا ذنبي إيه تحرميني من أمي وحبيبتي اللي ما اتمنيتش من الدنيا غيرها؟ لا أنا عملت زيه وكنت بادور على آثار ولا رفضت إني اتجوزك!

سعاد: اتعاقب مني؟! دا أنا اللي أنقذته من عيلتي واللي كانوا ممكن يعملوه فيه، أنا اللي خرجت عن طوعهم وطول المدة اللي فاتت كنت باطلب قربه علشان حبيته وهو ما وافقش! كنت ممكن أرجع لأهلي ويعاقبوني عقاب بسيط وننتقم كلنا من أبوك لكن أنا لسَّا هربانة.

حسين: طب أبويا ومات، انتَ ليه ما رجعتيش لأهلك دلوقتي؟ وواقفة قدامي عاوزة مني إيه حالًا؟!

سعاد: أبوك ما ماتش، أنا اللي انتقمت منه.. عارف ليه؟

حسين: ليه؟

سعاد: السبب الأول علشان رفضني وقال لي لأ وفضَّل أمك عليَّ رغم كل اللي عملتهوله، أما السبب التاني فعلشان حبيتك انتَ.

حسين: آه كدا الرؤية وضحت عندي خلاص، بتحبيني فتنتقمي من حبيبتي علشان ما يتكررش معاكِ نفس اللي حصل مع أبويا تاني، صح كدا؟

سعاد: طيب ما هو أنا كنت ممكن أسيطر عليها وأبقى أنا اللي معاك مش هي، بس أنا ما عملتش كدا، عارف ليه؟

علشان كنت هتموت في كل لحظة هتشوفها فيها بتتألم قدامك من وجودي وانت مش عارف تعمل لها حاجة، علشان كدا قررت أريحك وأختار واحدة انتَ ما حبيتهاش.

حسين: انتِ كنتِ ممكن تريحيني بإنك تبعدي عني خالص وتسيبيني في حالي بدل ما انتِ دمرتيلي حياتي بالشكل دا!

سعاد: أنا هاقدم لك اللي ما حدش يحلم بيه لو طاوعتني.

حسين: طيب إيه المطلوب مني دلوقتي؟!

سعاد: دي محتاجة سؤال؟! مطلوب منك تتجوزني طبعًا، وبكدا انتَ هتظهر بصورة حلوة قدام الناس؛ إنك بتبِّر مرات أخوك وفي نفس الوقت هاعرف أسيطر عليها لما احتاجك قريب مني.

حسين: ولو رفضت إني أطاوعك وأعمل كدا؟

سعاد: ارفض براحتك بس انتَ شُفت بعينك اللي حصل لأبوك.

حسين: قصدك إيه؟ هتقتليني زي ما قتلتيه؟

سعاد: اعدل الكلام شوية، هاقتلك بعد ما أخليك تشوف كل أهلك بيموتوا قدام عينيك واحد واحد.

حسين منفعلًا: كفاياكِ دم وقتل بقى كفاية، كل دا علشان إيه؟ علشان ترضي غرورك؟

سعاد: أنا بلغتك باللي عندي، فكر في كلامي كويس وهارجع لك تاني.

قالت هذه الجملة ثم وجدت سعاد قد انتفضت من موقعها وطارت في الهواء حتى اصطدمت بالباب خلفها فاقدة لوعيها، أسرعت نحوها ووضعت رأسها على ذراعي وضربتها على وجهها عدة ضربات متتالية بشكل غير قاسٍ مصحوبة بقولي: «سعاد سعاد سعاد» حتى أفاقت مما كانت فيه.

سعاد مندهشة: إيه اللي حصل؟ أنا إيه اللي جابني هنا؟

حسين: ما اعرفش أنا لقيتك بتخبطي على الباب فقُلت لك ادخلي وسألتيني إذا كنت هانام ولا لأ وبعدين وقعتِ في الأرض، قعدت أفوَّق فيكِ وأهه لسَّا فايقة.

سعاد باكية: أنا آسفة ما اعرفش إيه اللي حصل، آسفة.

همت سعاد بالوقوف من مكانها وكادت تغادر الغرفة حتى استوقفتها طالبًا منها الانتظار للحظات..

حسين: استني يا سعاد، أنا عاوزك.

سعاد: فيه حاجة يا دكتور حسين!

حسين: أنا عارف إنك بتحبيني من زمان، بس أنا قلبي كان مع كريمة؛ لكن دلوقتي كريمة راحت علشان كدا أنا قررت إني أتجوزك.. لسَّا عاوزاني؟!

سعاد وقد ظهرت عليها علامات الفرح الشديد: لسَّا عاوزاك؟! دا سؤال تسأله! دا انتَ لو رديت الباب في وشي ألف مرة هارجع أدق على بابك للمرة الألف وواحد وأطلب قربك، أتجوزك؟ أخيرًا قُلتها!

دا أنا ما اتمنيتش من الدنيا دي قد ما اتمنيتك انتَ، ما طلبتش من ربنا طلب قد ما طلبتك منه ودعيته إنه يحنن قلبك عليَّ وتحس بيَّ أو على الأقل تشوف حبي ليك.

بدأت علامات الفرح تختفي من وجهها ثم أردفت: بس اشمعنى دلوقتي؟ عاوز تنسى بيَّ اللي حصل لك في الفترة اللي فاتت؟

ثم بدأ الحماس يظهر من جديد وأردفت: بس أوعدك إني هاقف جنبك وهانسيك كل اللي حصل، وهاخليك تحبني زي ما أنا بحبك وأكتر.

حسين: نعدي الأزمة اللي احنا فيها دي بس وهاتجوزك ونستقر في البلد هنا، ونخلف صبيان وبنات كتير.

سعاد: الله! أخلف منك عيال ويشيلوا اسمك؟ دا أنا كدا أبقى في الجنة..

* * *

12 مايو 1968م

أمين يتحدث:

- كنت قد وصلت إلى الطلمبة أنا وكريمة وأخبرتها بما جاش في صدري، ومفصِحًا عن رغبتي في الزواج بها، فما كان منها غير الصمت مع ابتسامة جميلة مُطبِقة للمثل الشعبي: «السكوت علامة الرضا».

وها أنا الآن أتأهب للذهاب إلى بيت عم سالم لطلب القُرب من الأميرة الصغيرة، مُرتديًا قميصًا أبيض على بنطال رمادي، وزُينَت قدماي بحذاء جلد أسود يسر الناظرين ويخطف أبصارهم.

كنت في طريقي إلى بيت العروس سيرًا على الأقدام، وكما توقعت فنظرات أهل البلد كانت تعبر عن إعجابهم قائلين في بالهم: «متشيك كدا ليه البيه الأستاذ؟! دا ماشي على الأرض مش على قزاز».

وصلت أمام الباب وقبل أن أطرقه مددت يدي في جيبي الأيسر وأخرجت منه وردة حمراء، وأعدت ترتيب وريقاتها الصغيرة من جديد ثم وضعتها في جيب القميص على صدري ثم طرقت الباب.

فتحت لي الباب هذه المرة زوجة عم سالم والتي لم أكن أعرف اسمها حتى هذه اللحظة، ثم رحبت بي وطلبت مني الدخول قائلة:

زوجة عم سالم: اتفضل يا أستاذ أمين اتفضل، دا احنا زارنا النبي النهاردا.

أمين: الله يخليكِ، دا من ذوق حضرتك والله، هو عم سالم موجود؟

الزوجة: آه موجود ثواني أنادي لك عليه.. طيب اتفضل ما ينفعش تفضل واقف على الباب كدا!

أمين: الله يكرم أصلك، بلغيه إني قاعد مستنيه على المصطبة بس.

الزوجة: حاضر من عينيَّ، ثواني.

دخلت زوجته لاستدعائه بينما ذهبت أنا للجلوس على المصطبة ثم انتظرت لدقيقة.. اثنتين.. ثلاث.. أربع.. خمس.. عشر ولم يخرج أحد،

وما كدت أهم بالوقوف لأطرق الباب ثانية لمعرفة علة التأخير حتى خرجت زوجته من جديد بصينية عليها كوبين من الشاي وعللت تأخر زوجها بأنه يتأهب لملاقاتي وسيخرج بعد لحظات.

تعجبت من قولها بأنه يتأهب لملاقاتي حيث إنه في كل مرة رأيته فيها كان عاديًّا جدًّا؛ لكن بينما كنت أفكر في حديث هذه السيدة رأيته يقطع حبل أفكاري ويظهر بجلباب بلدي أعتقد بأنه جديد، وأن هذه هي المرة الأولى التي يرتديه فيها.

اقترب مني نافضًا كلتا يديه، خارج جسده مصحوبة بحمحمة «إحم إحم»، قائلًا بصوت أسمك قليلًا من المعتاد وبه الكثير من التريث: يا مرحب يا مرحب بالأستاذ أمين.

أمين: ازيك يا عم سالم؟ أخبار صحتك إيه؟ وإيه الحلاوة دي كلها بس؟

سالم: الحمد لله، نحمد ربنا على كل اللي يجيبه، الحلاوة حلاوتك والشياكة شياكتك يا أصيل يا ابن الأصول.. ألا قل لي إيه سر الزيارة المفاجئة دي؟!

أمين: مافيش، أنا كنت جاي أبلغك إني خلاص هاستقر في البلد وهاعيش وسطكم، وكنت عاوزك تساعدني ألاقي مكان مناسب أفتح فيه الكُتاب اللي قُلت لي عليه.

سالم: وانت يا أستاذ أمين لما تيجي لي علشان تبلغني إنك هتسمع كلامي وهتفتح الكُتاب هتيجي بالشياكة دي كلها وملمع الجزمة بتاعتك لو بصيت فيها أشوف وشي، ومعلق لي وردة حمرا في جيبك! ما تظبط الكلام يا أستاذ أمين.

أمين: لا ما هو فيه موضوع تاني كنت حابب أكلمك فيه.

سالم: اتفضل.

أمين: أنا عاوز أطلب إيد بنتك كريمة.

أطلق عم سالم ضحكات متقطعة في الهواء، وبينما كان يضحك خرجت علينا زوجته بصينية أخرى عليها كوبين من الشربات.

أمين: إيه دا إيه دا؟ انتَ كنت عارف إني جاي..!

سالم: هو انتَ فاكر إن بنتي حبيبتي هتخبي عني حاجة من اللي حصلت دي؟! ليه ما عرفتش أربي ولا إيه؟! * يضحك *

أمين: يعني أفهم من كدا إنك موافق؟

سالم: دا إحنا نجيبها لك خدامة لحد عندك يا جوز بنتي.

ثم انطلقت الزغاريد من داخل البيت لتعم أرجاء المنطقة التي يعيشون بها.

الفصل العاشر - الأخير

23 أكتوبر 1945 م

قبل أسبوع من عودة الدكتور حسين في إجازة صغيرة.

الشيخ سلامة يتحدث:

– في يوم من الأيام بينما كنت جالسًا في بيتي أمارس عملي، دخلت إلى غرفتي إحدى السيدات الشابات بادئة كلامها معي مباشرة قائلة: «وانت بتجيب فلوس منين تاكل وتشرب بيهم يا شيخ سلامة لما انتَ ما بتاخدش فلوس من العيانين؟».

كانت تتفوه بهذه الجملة بعدما دخلت للغرفة ثم بدأت بالتأمُّل في أحوال البيت المتهالك، ناظرة باحتقار لتلك الأريكة التي كانت ستجلس عليها.

سلامة: يا بنتي ربك كبير وما بينساش حد، والأرزاق كلها بإيده.

الفتاة: الأرزاق كلها بإيده ما قُلناش حاجة؛ لكن الكلام دا تضحك بيه على الناس الخايبة اللي بتيجي لك المكان المُقرف دا مش عليَّ.

سلامة: انتِ تقصدي إيه بالكلام دا!

الفتاة: هو انتَ بتكسب كويس من موضوع الآثار اللي بتشتغل فيه مع الحاج ثروت لدرجة إنها تخليك ما تاخدش فلوس من العيانين؟ طب يا راجل ما ترمي علينا حاجة احنا كمان واكسب ثواب.

سلامة: آثار إيه اللي انتِ بتتكلمي عنها يا بنتي؟! أنا مش فاهم حاجة من كلامك ولا أعرف انتِ تقصدي إيه.

الفتاة: سايق عليك النبي يا شيخ سلامة ما تدَّعيش عليَّ الفضيلة قوي كدا، واعمل الشويتين بتوعك دول على حد تاني، إنما أنا شايفاك بعيني وانت في بيت الحاج ثروت، وسمعت اللي دار بينكم كلمة كلمة.

سلامة: انتِ مين؟

الفتاة: كدا انتَ بدأت تفتح مخك معايا، أنا هاقول لك أنا مين؛ لكن هاتفق معاك اتفاق الأول.. هاديك كل اللي تطلبه قصاد خدمة صغيرة قد كدا، لو هتنفذ الخدمة من غير ما تعرفها هاكمل كلامي، لو مش موافق يبقى تنساني ولا كأني جيت لك ولا انتَ شُفتني.

سلامة: من غير ما أعرف الاتفاق، بس ما دام هتديني اللي هاطلبه فاعتبريني وافقت.

الفتاة: أنا سعاد بنت الحج سلامة تاجر القماش اللي في البر التاني، وحمايا يبقى الحاج ثروت اللي انتَ بتشتغل معاه أو كنت بتشتغل معاه قبل ما يضحك عليك، وأنا مش عاوزة منك حاجة غير إني أتجوز ابنه الدكتور حسين بأي طريقة.

سلامة: انتِ تبقي مرات شحاتة الله يرحمه؟

سعاد: الله يرحمه ويحسن إليه بقى يا عم سلامة، يرضيك يبقى نفسي في حسين ويجوزوني أخوه؟

سلامة: نفسك فيه ازاي!

سعاد: أنا هاقول لك.. أنا شُفت حسين كام مرة كدا وحبيته واتمنيت إنه يبقى من نصيبي، فرُحت لواحدة زي حالاتك كدا تعمل لي عمل تجيبهولي لعندي ويتجوزني.

سلامة: وبعدين؟

سعاد: وبعدين إيه، ما هو العمل باظ أهه ووقعت في أخوه مكانه، وساعتها مستحيل كنت أقف في وش أبويا وأقول له لأ، ويشاء السميع العليم اللي عارف قد إيه أنا ما كنتش طايقاه ولا طايقة أبص في وشه ياخده جنبه على طول كدا.

وقعدت معاهم في البيت كافية خيري شري، منها إني أبقى شايفة حسين قدامي لما يكون في أجازة، وفي نفس الوقت أعمل خدي مداس لحماتي يمكن ترضى عني وتخليه يتجوزني.

سلامة: طيب وانتِ جاية ليه دلوقتي؟!

سعاد: مش عارفة.. اتصرف.. المهم إننا نتجوز أنا وهو وهادي لك كل الفلوس اللي انتَ عاوزها.

شردت بخيالي في آخر موقف حدث بيني وبين الحاج ثروت ورفضه إعطائي نصيبي من المال في آخر عملية للتنقيب عن الآثار معه، وهددني بأنه سيقتلني إن تفوهت بكلمة واحدة لأحد، لذلك قررت الانتقام منه على طريقتي الخاصة.

سلامة: هاجوزهولك وهاعمل لك كل اللي انتِ عاوزاه، بس لازم يكون فيه دم.

سعاد: دم ازاي يعني؟!

سلامة: ناس هتموت علشان توصلي لقلبه وتنولي المراد.

سعاد: اللي يموت يموت المهم يبقى بتاعي في الآخر.

سلامة: خلاص هتستني لحد ما ييجي البلد وهتجيبي حاجة من أتْرُه يكون عرقان فيها وتسيبي لي الموضوع دا خالص.

ثم اتفقنا سويًّا وقدَّمت لي بعض المال كعربون محبة على حد وصفها، ثم ذهبت من حيث جاءت.

* * *

23 أكتوبر 1945 م

الشيخ سلامة يكمل حديثه:

- غربت تلك الحقيرة صاحبة الأسلوب القذر سعاد عن وجهي تاركة لي التفكير في أمور عدة، لعل أهمها هو هل من الممكن أن تكون هذه السيدة على استعداد كامل لخسارة أي شيء نظير الوصول إلى حبيبها الأبدي كما أبلغتني؟!

هل هذا الدكتور حسين الذي تعشقه سيُشبع قلبها ويجعلها تسير في طريق الدماء حتى التلاقي؟!

والله لن أضع نفسي أسيرًا للتفكير في أمور لا تخصني، أنا أحطتها علمًا وهي وافقت؛ لكن جاءت الفرصة أخيرًا للانتقام من ثروت الظالم وسألعب معه بطريقتي الخاصة التي أعرفها جيدًا، سأستطيع شفاء غليلي من هذا البيت الذي واجهت من أصحابه الكثير من الصعاب.

أنا على علم بما حدث لثروت في هذا البيت المهجور، فقد جاء لي ثروت بعد انتحار هذا الشيخ الذي كان يعمل معه طالبًا مساعدتي في موضوع هذه الجِنِّية، نجحت حينها في الوصول إلى تسوية بينه وبينها بأنه لن يتزوجها لكنها ستظهر له وقتما تشاء في هيئة قط أسود، وطلب

مني بعد ذلك أن أعمل معه في مجال التنقيب عن الآثار فوافقت على طلبه.

أنا من أوقفت أذى هذه الجنية عنه وأنا من سيعيد استخدامها من جديد لهلاكه، قمت بممارسة بعض الطقوس ونجحت في تحضيرها أمامي لأستطيع الحديث معها، ثم بدأت في إقناعها بأن تكف عن حب هذا العجوز وأن تنظر إلى ابنه بدلًا عنه، وبالفعل نجحت ثم استطعت تسييرها كما أشاء، وبدورها تستطيع هي تسيير جسد حسين لممارسة أعمال القتل بحرفية شديدة.

* * *

20 نوفمبر 1945 م

سعاد تبدأ بالحديث:

- انتهى الدكتور حسين –سابقًا، حبيبي حاليًّا- من كلامه البرَّاق المعسول الذي تفوَّه به لأول مرة أمامي في حواره معي، كانت السعادة تغمرني غمرًا ولم أستطع التحكم في إخفائها أمامه أو أمام أي مخلوق كان، بل وعندما ذهبت إلى غرفتي لم أستطع المكوث طويلًا فيها من شدة الفرح، فحديثه معي أشبع قلبي بالطاقة التي لا بد من إخراجها في أي صورة من صور السعادة، لذلك ارتديت عباءتي السوداء

وخرجت من المنزل في حرص شديد أن لا يراني أحد سواء من أهل البيت أو حتى أهل القرية، ذاهبة لبيت الشيخ سلامة.

وصلت إلى البيت فوجدت أناسًا كثيرين قد افترشوا الأرض كعادتهم؛ لكنني فعلت ما أفعله في كل مرة آتي فيها إلى هنا وطرقت الباب سبع طرقات متتالية برفق لأجده يفتح الباب طالبًا مني الدخول سريعًا.

سلامة: إيه اللي جايبك دلوقتي يا سعاد؟ انتِ اتجننتِ! انتِ عارفة لو حد شم خبر عن مقابلاتنا دي ممكن يحصل فينا إيه؟!

سعاد: لا ما هو أنا جاية دلوقتي علشان أقول لك إني خلاص مش هاجي لك تاني ولا هتشوف وشي.

سلامة: إيه اللي حصل؟ الزبون سلِّم خلاص؟!

سعاد: خلاص سلم وعرض عليَّ إنه يتجوزني.

سلامة: بس إحنا كنا لسَّا هنعمل خطة لبس الجنية ليكِ ويقدر يتكلم معاها في صورتك بكرة!

سعاد: لأ ما هو أنا بصراحة قلقت من إنها تسيَّرني زي ما انتَ قُلت لي وقُلت أرسم الموضوع عليه بنفسي وتخنت صوتي وأنا باكلمه مع شوية حركات غريبة وصدق وقال لي هنتجوز خلاص.

سلامة: أفهم من كدا إنك جاية تقولي لي مهمتك انتهت واقفل الموضوع على كدا وتديني باقي حسابي؟!

سعاد منفعلة: حساب! حساب إيه يا أبو حساب؟ انتَ ما كفاكش اللي انتَ لهفته كل الفترة دي؟ ولا انتَ حوت ما بتشبعش ولا إيه؟ أنا جاية أقول لك خلاص كدا شطبنا، خلاص شيل عفاريتك دي من عندنا يلا واتوكل على الله من حياتنا من غير مطرود، واوعى تفكر تلعب معايا يا سلامة أحسن انتَ مش عارف أنا ممكن أعمل فيك إيه.

سلامة منفعلًا: انتِ جاية لحد عندي تهددديني؟! انتِ اللي مش عارفة أنا ممكن أعمل فيكِ إيه، أنا ممكن أطربق الدنيا على دماغك ودماغ اللي خلفوكِ.

سعاد مقاطعة كلامه بسخرية: بس بس بس، لا تعمل ولا اعمل يا عم الشرير علشان أنا باخاف.. انتَ آخرك معايا الغويشتين اللي في إيدي وقفلنا القصة على كدا.

خلعت الغويشتين اللتين كنت أرتديهما في يدي اليمنى ثم ألقيت بهما على الأريكة التي كان يجلس عليها هذا المجنون، ولم أترك له مجالًا للحديث ورحلت مباشرة.

* * *

19 ديسمبر 1945 م

حسين يتحدث:

– على ما يبدو أنه لا مفر من زواجي بسعاد سلامة زوجة أخي المتوفى، راضخًا لمتطلبات هذه الشريرة من العالم الآخر، أيضًا لا أتفهم إصرار سعاد الغريب على إتمام زواجنا في أسرع وقت، متعجبًا من جرْأتها فجأة هذه الأيام رغم علاقتنا التي دائمًا ما كانت مغلقة ومُقتصرة على «إزيك يا دكتور حسين، الله يسلمك يا سعاد» فقط.

أيضًا تدخل إلى غرفتي وتجلس بالساعات متحدثة عن أسلوب حياتنا بعد الزواج، غير مبالية بما حدث لنا في الفترة الماضية.

أعتقد بأن الكلام ليس في محله الآن؛ فاليوم هو يوم عُرسي، مُرتديًا قميصًا أبيض على بنطال أسود، حقيقة لم يخطر في بالي أبدًا قدوم هذه اللحظة على أي مخلوقة كانت غير كريمة رحمها الله.

خرجت من غرفتي لأجد المأذون في ضيافتنا آتيًا معه برجُلَيْن ليشهدا على عقد قراني وكلتا أختيَّ، بينما كانت سعاد في غرفتها تنتظر دخول المأذون عليها مع أحد المحارم ليسألها عن رأيها في إتمام الزواج.

كانت أماني سعيدة لإتمام هذا الزواج عمومًا؛ لأنني أخيرًا قررت المُضي في حياتي بعد كل هذه الأحداث، واختيار هذه الزيجة على وجه

الخصوص لاعتقادها بأنني بهذا الفعل سوف أبر أمي وسأرسل إليها وإلى أخي الطمأنينة، خاصة وأنها لم تر منها غير الخير، أما فاطمة فلم تهتم بما يحدث.. جلست صامتة ولم تتفوه ولو حتى بحرف واحد طيلة هذه الجلسة، مكتفية بإخفاء حزنها الذي قسم قلبها في هيئة ابتسامة صفراء رُسِمت رغمًا عنها.

أتممنا الزواج كأي عقد قران يُبرم ثم رحل الحضور كلٌّ إلى وجهته، ودخلنا غرفتنا سويًّا أنا وسعاد لأول مرة كزوجين، كانت تلك الغرفة قد جهزتها لنا أختي أماني لننعم فيها بالهدوء والراحة مؤقتًا، ثم الانتقال بعد ذلك إلى غرفة أبي بعدما نتناسى رهبتنا الشديدة منها ومن دخولها.

دخلنا إلى الغرفة ثم أغلقت سعاد الباب خلفها، وما إن سمعت صوت غلق الباب حتى شعرت بالقلق قليلًا؛ فهذه هي المرة الأولى التي نجلس فيها منفردين وحولنا الأسوار مغلقة من كل الاتجاهات.

ذهبْت متجهًا للسرير ثم جلست على جانبه الأيسر مُعطيًا ظهري للعروس؛ لأنني حينها شعرت بتشويش شديد في رأسي مدركًا مدى

كِبَر خطئي الذي ارتكبته في حق نفسي عندما وافقت على الزواج بها، فكيف لي أن أعاشر جنِّية؟!

وبينما كنت منهمكًا في التفكير في هذا الأمر حاولت سعاد تلطيف الأجواء واقتربت مني حتى جلست إلى جانبي فأدَرْت جسدي عنها قليلًا لتستمر في محاولات القرب مني، واضعة يدها على كتفي بحنين مبالغ فيه ثم دنت من أذني:

سعاد: ما لك يا حبيبي سرحان في إيه؟!

حسين مُرتبكًا: سعاد آاا، أنا مش عاوز أكدب عليكِ؛ لكن لحد دلوقت مش مستوعب الأحداث اللي أنا مريت بيها الحقيقة.

سعاد مقاطعة كلام **حسين:** وأنا اتفقت معاك إننا مع بعض هنقدر نعدي الأزمة دي، وهنقدر نتغلب على أي حاجة ممكن تضايقنا أو تعكر مزاجنا، ادِيني انتَ فرصة بس أثبت لك إنك اخترت صح.

حسين: أنا فاكر انتِ اتفقتِ معايا على إيه كويس، بس ينفع.. ينفع تسيبيني براحتي وتديني وقتي الكافي علشان أقدر أعيد اتزاني من تاني؟ وأنا باوعدك إن كل حاجة هتبقى كويسة في أقرب وقت.

وما إن سمعت سعاد هذه الجملة حتى همَّت بالانصراف فورًا من جانبي، فلم أحاول إيقافها أو النظر إليها من الأساس، ثم سمعت

صوت فتح خزانة الملابس «**الدولاب**» وأخذت منه شيئًا ورحلت، فاعتقدت بأنها أخذت «**قميص نوم**» ذاهبة للحمام لتغيير ملابسها..

لكن الغريب أنها أطالت المدة التي كانت فيها خارج حدود وطننا الجديد لأكثر من نصف ساعة، فانشغل بالي عليها خشية أن تكون قد أصابت نفسها بمكروه بعد هذا الحديث الذي جمعنا، فقررت الذهاب إلى الحمام للاطمئنان عليها.

وما كدت أتحرك من مكاني إلا وجدتها قد أتت من جديد؛ لكن هذه المرة مختلفة جدًّا، فقد أطلقت العنان لشعرها الطويل الناعم المسترسل، الذي يشبه إلى حد كبير شعر كريمة، فدنَوْت منها للسؤال عن سبب تأخرها كل هذه المدة فقد انشغل بالي كثيرًا بها، فحدث ما لم يكن متوقعًا على الإطلاق.. ملامح وجهها تبدلت إلى ملامح وجه كريمة!

نعم هي كريمة التي تقف أمامي الآن وقد انطفأ وجهها كثيرًا عندما سمعت ما قُلته لسعاد، قائلة لي:

كريمة: انشغل بالك على سعاد؟ طيب وأنا؟

حسين مذهولًا: كريمة! انتِ لسَّا عايشة؟!

كريمة: ما لك مستغرب ليه؟ ولا مكسوف من نفسك إنك شُفتني تاني بعد ما قررت تنساني وتنسى كل وعودك ليَّ؟ ومع مين؟! مع اللي كانت سبب في أذيتي وأذيتك انتَ واللي يخصك طول الفترة اللي فاتت! أنا قلبي شايل منك بحجم الكون دا كله يا حسين.

حسين: سعاد! سعاد هي سبب أذيتك وأذيتي؟!

تغير صوت كريمة تدريجيًّا إلى نفس الصوت الذي كنت قد سمعته أثناء حديثي مع سعاد في غرفتي عندما غابت عن وعيها تغييرًا مصحوبًا بإعادة ملامح سعاد من جديد؛ لكن ليست بنفس الدرجة الجميلة التي رأيتها قبل قليل، بل كانت عينها متسعة وحمراء كاحمرار الدم، معلنة عن الشر.

سعاد: أيوة أنا سبب أذيتك، أنا اللي خليتك تولع في بيت كريمة بدم بارد، كررت نفس الموضوع مع أبوك لما رميت عود الكبريت في مخزن القش، وآخر جريمة لما شنقت أمك المسكينة بإيدك وهي نايمة لا حول لها ولا قوة..

اقتلني.. اقتلني وريح الناس كلها وريح نفسك من شري اللي هيطولك بعد كدا، اقتلني لو لسَّا خايف على أهل بيتك اللي باقيين قبل ما اقتلهم أنا.

نجحت مخلوقة العالم الآخر في تفجير بركان الغضب الذي كان بداخلي إثر سماعي لهذا الحديث، ولم أعد قادرًا على تمالُك أعصابي فانقضضت على سعاد ممسكًا رقبتها ويداي ملتفتان حول عنقها، ولا أسمح للهواء بالعبور والوصول إلى صدرها، كانت تقاوم سكرات الموت محاولة فك يدي من رقبتها ولكن بلا جدوى؛ فقد كنت أطبق عليها كإطباق الأسد على فريسته.

وما هي إلا ثوانٍ معدودة حتى رأيت يدها تتوقف عن المعافرة من أجل الخلاص من يدي، وشعرت بثقل جسدها في يدي فتيقنت أنها قد لفظت أنفاسها الأخيرة.

حينها لم أشعر بنفسي إلا وأنا أمام بيت الشيخ سلامة في البر الثاني، فقد كنت أركض كالمجنون، طرقت الباب بهدوء محاولًا تهدئة نفسي بنفسي فلم يرد الشيخ، أعدت الطرق من جديد أيضًا كانت نفس النتيجة. نظرت إلى الشباك المُطل على الشارع فرأيته مفتوحًا قليلًا، ففتحته أكثر لأستطيع الدخول من خلاله، وعلى عكس العادة هذه المرة لاحظت امتلاء البيت بالدخان الكثيف الناتج إثر اشتعال كميات

كبيرة من البخور، أعلم أن عمل الشيخ يستدعي إشعال البخور لكن ليس بهذا الشكل المرعب وفي هذا التوقيت!

تحسست الأماكن حتى وصلت إلى غرفة الشيخ لأجده مُلقًى على الأرض في زاوية الباب تمامًا كما وقعت سعاد وبنفس الطريقة!

* * *

« ليلة الخلاص »

19 ديسمبر 1945 م

سلامة يعود للحديث:

– منذ ذهاب سعاد من بيتي وأنا لم أكف عن التفكير.. فقد قام حماها من قبل بخداعي وشربت من نفس الكأس من جديد؛ لكن هذه المرة على يد امرأة!

عزمت على الانتقام لسببين.. أولهما انتقامًا منها؛ لأنها أخذت مُرادها مني ورفضت استكمال الخطة التي وضعناها سويًّا كاملةً ولم تعطني نصيبي الكامل من المال الذي كنا قد اتفقنا عليه.

أما السبب الثاني فهو انتقامًا لنفسي من هذا البيت وأهله فخداعهم لي لمرتين متتاليتين كان كفيلًا لخلق طاقة غضب بداخلي تكفي لإغراق هذا الكون في بحور من الظلمات؛ لذلك قررت التحالف مع ملكة العالم السفلي من جديد.

قمت بممارسة الكثير من الأعمال اللازمة لإحضار تلك الجنية، محاولًا بشتى الطرق إخضاعها لي لكنها لم تستجب أبدًا؛ ظنًّا منها بأنني خدعتها في المرة السابقة، عُدت مرة أخرى لمحادثتها واعدًا إياها

بوهبها آخر فرد من نسل هذه العائلة ويُدعى أمين، فوافقت على الظهور لي في هيئة رجل مُسن وجلست أمامي وبدأنا الحديث..

سلامة: أنا عارف إنك ما بقيتيش تثقي فيَّ وليكِ حق تشككي في كلامي اللي باقوله؛ لكن مش أنا اللي خدعتك وضحكت عليكِ.. سعاد هي اللي خدت مني اللي هي عاوزاه وقررت ما تكملش اللعبة للآخر، علشان كدا أنا قررت أنتقم منها.

الجنية بصوت ضعيف باهت: إيه المقابل اللي هتقدمهولي قصاد إني أساعدك في اللي انتَ عاوز تعمله؟!

سلامة: هاديكِ آخر واحد من نسل ثروت.

الجنية: وإيه الدافع اللي يخليني أثق فيك بعد كل دا؟!

سلامة: الدافع!! أقل حاجة أقدر أقولها لك إن كان بإمكاني أسلمك لأهلك من زمان جدًّا وانتِ عارفة الكلام دا كويس.. خلينا نفتح صفحة جديدة مع بعض لمصلحتي ولمصلحتك.

فحركت رأسها مبديةً موافقتها على طلبي ثم رحلت.

انتظرت كثيرًا بعد ذلك حتى تأتي اللحظة المناسبة لتنفيذ خطتي، ثم جاءت البشارة على يد إحدى الفتيات كنت قد قمت بتجنيدها

لتكون لي بمثابة عين على هذا البيت، فعلمت أن الليلة هي ليلة عُرس حسين وسعاد!

مارست طقوسي الخاصة سريعًا لتحضير الملكة ثم انتظرت حتى انتهوا من مراسم الزواج، وبدأنا في اللعب بمعطيات القدر سويًّا أنا وهي من جديد.

في البداية كانت الأمور تسير في مسارها الصحيح، تم تسيير سعاد بنجاح من قِبَل ملكة الجن السفلي ومن ثم بدأنا التلاعب بالعقل الباطن لحسين، ليُخيل له أن التي أمامه ليست بسعاد وإنما كريمة، ثم انقلبت الأمور رأسًا على عقب وبدأت في الشعور بارتخاء عضلات جسدي، فاقدًا القدرة على السيطرة عليه، ثم تم تسييري لجانب فتحة باب الغرفة التي كنت أجلس بها وتم رفعي إلى أعلى، فشعرت بالاختناق الشديد وعدم قدرتي على إدخال الهواء لحلقي، وكأن شخصًا ما أمامي يقبض روحي!

* * *

19 ديسمبر 1945 م

حسين يتحدث:

- دخلت على الشيخ سلامة فوجدته مُلقًى على الأرض، دنوْت منه وأمسكت بيده فلم أجد له نبضًا، فقد انتقل إلى مثواه الأخير تاركًا لي الكثير من علامات الاستفهام حول أسباب وفاته المجهولة، خصوصًا مع تشبُّع البيت بهذا الدخان الكثيف!

عُدت مرة أخرى إلى منزلي وبالتحديد غرفتي الجديدة، والمفاجأة.. لم أجد جثة سعاد! كل ما وجدته كانت هذه الجرة الفخارية التي اعتدت على رؤيتها دائمًا.

ذهبت إلى غرفتي وجلست على مكتبي وبدأت في كتابة مذكراتي التي هي بين أياديكم الآن، قاصًّا ما حدث معي بالتفصيل؛ لكنني إلى الآن أجهل الأسباب الحقيقية وراء كل ما حدث!

تعرض الكثيرون للأذى على يدي ولا أعرف من هو المتسبب الحقيقي في هذه الأحداث، هل هو أنا أم أبي؟ لكنني سئمت من هذه الحياة وكل هذه الدماء التي أُريقت ولم أعد قادرًا على تحمُّل آلام الفقد، ولا على عيْش هذه الحياة دون محبوبتي الأولى والأخيرة..

كريمة التي قتلتها بيدي، وأبي وأمي ومؤخرًا سعاد التي لم أعرف بعد هل هي بريئة أم من ضمن الأسباب المهمة والرئيسية لكل ما حدث!

فكرت كثيرًا في هذه الأمور وتوصلت لحل وحيد قد يُرضي جميع الأطراف، وستنتهي به هذه اللعنة، وهو أن أموت خاصة بعد مقتل المشتبه بهم جميعًا ولم يبقَ سواي.

أنا الآن أحضرت حبلًا وصنعت منه مشنقة وسأنتهي من كتابة هذه المذكرات ثم أنتقل إلى المشنقة، آخذًا معي الكرسي الذي أجلس عليه الآن وسأنتقل إلى مثواي الأخير.

رسالتي الأخيرة:

دائمًا ما كنت حريصًا على كوني مصدر فخر لعائلتي منذ بداية مسيرتي التعليمية، مرورًا بدراستي للطب ثم التخرج والعمل بالقاهرة.. حققت كل أحلام الجميع التي أملوها فيَّ؛ لكنني نسيت نفسي عن غير عمد ولم أحقق أيًّا من أحلامي التي تمنيتها طوال حياتي.

لكنني كنت موهومًا بتلك السعادة التي أراها في أعين من حولي نتيجة تحقيق تطلعاتهم، وفي النهاية كنت أنا الخاسر الوحيد.

على من يقرأ أوراقي الآن الاستماع جيدًا لنصيحتي واضعًا إياها نُصُب عينه..

ضع لنفسك مستقبلًا خاصًّا بك ولا تغُرنَّك الحياة، رأفة بأحلام الآخرين وتطلعاتهم لأنك ستندم أشد الندم حتمًا على هذا بعد ذلك وسيكون الأوان قد فات.

أعتذر للجميع على قراري هذا الذي يراه البعض ضد الدين أولًا وضد العلم الذي تعلمته طيلة أيام حياتي؛ لكنها الحياة تعطي لأحدهم وتمنع عن الآخر.

أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

* * *

20 ديسمبر 1945 م

فاطمة تتحدث لأول مرة:

- أعلم جيدًا أن أخي لم تكن في قلبه سعاد في أي وقت من الأوقات، وأن كريمة هي الحب الأول والأخير الذي طالما تمنيت أن يعشقني أحدهم كعشقه لها، وأن أجد الشخص المناسب ليغنيني عن العالم بأسره كما هي له.

كنت شاهدة على عشقهما الأبدي وهمزة الوصل بينهما حين تضيق الضائقة ولا تكون هناك فرصة للتواصل بينهما؛ لكن كل ما نتمناه لا بد أن نخشاه، وعلينا أن نعلم أن لعبة القدر دائمًا ما تكون مخالفة لتوقعاتنا، لا أشترط بكلامي أن تكون الأقدار جيدة أو سيئة؛ لكنها تكون مُغايرة دائمًا لواقعنا الذي نعيشه.

لقد تألم حسين كثيرًا في الآونة الأخيرة، فقدَ العديد والعديد من المقربين لقلبه في الفترة القليلة الماضية، وأيضًا تلك الكوابيس التي كان يراها، ورغم إحاطتها بالكثير من الألغاز فلم أرِد سؤاله عنها في أي وقت من الأوقات.

استيقظت من نومي صباح ثاني أيام زواج أخي لأحضر له الفطور، كنت أشعر رغم صغري بأنني مُدانة بالمسؤولية تجاهه، خصوصًا في هذا التوقيت. قمت بإعداد الإفطار ثم ذهبت إليه لأسأله عن ما حدث في الليلة الماضية.. بالتأكيد سأجد منه رد فعل غير معتادة عليه منه؛ لكنه سيحدث فأنا على يقين.

انتهيت من إعداد الطعام واضعة له المربى بالقشدة التي يحبها، وانطلقت صوب غرفته الجديدة، وقفت أمام الباب وطرقته بحماس شديد قائلة: «صباحية مباركة يا عريس».

لم يرد أحد، فأعدت الطرق من جديد بشكل أقوى لعل أحدًا منهم يسمعني: «افتح يا عريس، إيه نومة أهل الكهف اللي انتَ نايمها دي كلها؟!».

لم تكن عادة أخي النوم العميق، خصوصًا في الفترة الأخيرة، وحتى لو هو لم يسمع فماذا عنها؟ لماذا لا تفتح هذا الباب؟!

قلقت كثيرًا فقررت فتح الباب والدخول ويا ليتني لم أفعل هذا أبدًا! وجدت أخي مشنوقًا وزوجته الجديدة سقطت بجانب الباب بلا أنفاس تخرج من كليهما!

* * *

1نوفمبر 1968م

أمين يتحدث:

- انتهيت من قراءة مذكرات خالي التي لم أتوصل فيها إلى الآن لأسباب حقيقية لما حدث للمحيطين به؛ لكنني تأكدت بأنه قد مات منتحرًا.. لذلك قررت العمل بالمثل الشعبي «ابعد عن الشر وغني له» طبقًا لكلام عم سالم.

بالفعل ابتعدت عن التفكير في كل هذه الأحداث وقمت بفتح كُتَّاب في القرية لتعليم الأطفال القراءة والكتابة، وقررت الاستقرار في هذه القرية جوار كريمة.

اليوم هو يوم عُرسي على كريمة وقُمنا بتجهيز حفل كبير ذُبِحت فيه الذبائح للفقراء والمساكين، وجلست معهم وبدأنا حفلة الغناء الشعبي الفريد من نوعه لأهالي الريف على العموم وهذه القرية بالتحديد ثم انتهينا من الاحتفالات وأخذت عروسي وانطلقت لغرفتي الجديدة في منزلي، والتي كنت قد جهزتها لتلائم عروسين جديدين.

اقتربت من الحب الوحيد في حياتي كريمة، ودار بيننا هذا الحوار:

أمين: أنا جيت البلد دي على عمايا ما اعرفش إذا كنت هاكمل فيها ولا لأ، ما اعرفش إذا كان هيبقى ليَّ صحاب ولا لأ! بس كل اللي اعرفه إني لما شُفتك كنتِ الدافع الأول ليَّ إني أكمل هنا علشانك.

أنا بحبك يا كريمة ومش مصدق نفسي ولا مصدق اللحظة اللي أنا فيها حالًا واقف قدامك ومقفول علينا باب واحد!

كريمة: أنا اللي لو عشت عمرين فوق عمري ما كنتش أتخيل إن انتَ اللي هتبقى من نصيبي، من أول ما جيت البلد وأبويا بدأ يحكي عنك لقيت نفسي بحبك من قبل ما اشوفك أو اعرفك أو حتى اتكلم معاك. غصب عني لقيت حاجة بتشدني ناحيتك بتقول لي هو دا، ولما

جيت ورايا في السوق ما كنتش متخيلة اللي بيحصل وروَّحت جري على بيت أبويا وما عرفتش أخبي عليه عشان كنت طايرة من الفرحة.

ربنا يديمك ليَّ فرحتي وهنايا وسعدي يا...

توقفت كريمة عن استكمال حديثها؛ لكنني صُعِقت عندما أكملت ما تبقى من كلامها بصوت غليظ يشبه في أوصافه إلى حد كبير ذلك الصوت الذي وصفه خالي في مذكراته!!

* * *

4 يناير 1946 م

أماني تتحدث:

- في يوم من الأيام وبعد ما حدث تجاه عائلتي والأفعال الغير مبررة التي حدثت في هذا البيت، كنا نتناقش سويًّا أنا وأختي فاطمة.

فاطمة: أنا شاكة إن كل الأفعال اللي حصلت لنا دي وراها سر كبير ما حدش قادر يفهمه!

أماني: سر إيه؟ أخوكِ قتل سعاد بإيديه! لسَّا شايفة إنك صح وأنا غلط؟

فاطمة: اسمعيني بس.. حسين كان حكى لي يوم ما كريمة ماتت إنه شاف إنها ماتت في الحلم بنفس الطريقة اللي أبوكِ دخل علينا يومها

وحكاها، حسين كان نايم قبلها ومش معقول حتى يكون عارف إنها ماتت ويبقى قاعد ساكت كدا!

أماني: أخوكِ شكله كان مريض نفسي ومحتاج يتعالج، بس إحنا اللي ما أخدناش بالنا منه.. أنا مش فاضية لوجع الدماغ بتاعك بتاع الجن والعفاريت دا، أنا هاقوم أبص على أمين علشان سايباه في الأوضة لوحده.

اقتربت من غرفة أمين لكنني سمعت صوته وكأنه يتحدث مع أحد، فتحت الباب مسرعة لأجده جالسًا على الأرض وفي يده اليسرى لعبة لكنه لم يكن ينظر إليها، وإنما....!

ينظر إلى ذلك القط الأسود الذي اعتدنا على رؤيته دائمًا لكنه كان مختفيًا في الفترة الماضية!!

تمت بحمد الله..

إلى اللقاء في الجزء الثاني